

المَجْرَى وَالْمَرَى

تَفْسِيرُ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

عَلَيْهِ الْقَوْلُ

وَمَنْ أَمَّنْ وَمَاءَ أَمْنٍ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ * وَقَالَ ارْكَبُوا

فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ

وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ

وَأَنذَرَهُ

مُحَمَّدُ الْمِيلُ

المَجْرَى وَالْمَرَى

تَفْسِيرُ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

مُحَمَّدُ الْمَيْلُ

Al-Majrá wa Al-Marsá

Copyright © 2024 Mohamad Al-Mail

Mohamad Al-Mail has asserted his right to be identified as the author of this work in accordance with the Copyright, Designs and Patents Act 1988.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

First published in 2024
Second edition, 2026

Published by Upper Hand Organization
London, United Kingdom
www.upper-hand.org

ISBN 978-1-7396143-8-6 (paperback)

Cover design by Haitham Youssef
Calligraphy by Saleh Al-Madhoob

Printed and bound in Great Britain by Mixam UK Limited

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠٢٤ م

الطبعة الثانية (منقحة ومزودة)

١٤٤٨ هـ / ٢٠٢٦ م



لندن، المملكة المتحدة

كلمة الناشر

هذا كتاب «المجرى والمرسى»، جمع فيه محمد الميل تأملاته في معاني القرآن السامية وحكمه المتعالية، إذ انتقى من كل سورة آية، بدءاً من سورة «البقرة» وانتهاءً بسورة «نوح»، ثم أعمل فيها نظره، محتكماً إلى منهجية بسط مرتكزاتها في التوطئة.

وكان يحذوه الأمل أن يبلغ سورة «الناس»، لتغدو مسيرة مكتملة في رحاب القرآن الكريم، من ألفه إلى يائه؛ غير أن هذه المسيرة انقطعت إثر اعتقاله في بريطانيا عقب خطاب ألقاه نصرة للقضية الفلسطينية، وما إن أطلق سراحه بكفالة حتى بادر إلى طباعة الكتاب على حاله، حرصاً على حفظ ما جاد به قلمه.

الناشر



توطئة

مرت رحلتي الدينية بثلاثة منعطفات جد خطيرة، وتفصيل خبرها أنني قضيت شطرها الأول في مسلك ديني لا ينفك يصارع مذاهب المسلمين العقدية والفقهية، حتى غدوت فارساً في ميدان الجدال معروفاً، والنية لم تكن إلا صادقة، والمقصد لم يكن إلا الله، حتى إنني بذلت في ذلك السبيل الغالي والنفيس، تاركاً حلاوة الرفاه والعيش الطيب، هارباً بين ليلة وضحاها بديني وسلامة نفسي إلى دار الكفر، بل معقله^(١).

وما لبثت بعد تلك الحوادث العصبية أن ملمت قواي، فاستأنفت دعوتي، ثم عملت على توسيع رقعتها إلى نطاقات لم أكن لأبلغها وأنا في وطني، مصرّاً على أن حال الإسلام في عصرنا لن يستقيم إلا باستقامة أهله على المذهب الذي أعتنقه، مرجئاً انتكاسات الأمة في أرجاء المعمورة إلى تلك العلة الواحدة.

ذلك إلى ست سنين، إذ وقعت علي بعدها بلية عمياء، ومصيبة صماء، لا ناقة لي فيها ولا جمل، أرّنتني أعاجيب باسم الدين ترتكب، أبطال قصتها أهل السباحة والفضيلة، أحدثت في نفسي ردة فعل على الدين ومعتنقيه عنيفة، وأمتني إلى الافتتان في ديني، فغدوت أعتنق زخرفاً،

(١) أصدرت محاكم الكويت بحقي أحكاماً قضائية غيابة بلغ مجموعها أكثر من نصف قرن من السجن، قبل أن يشمل أمير الكويت الراحل، الشيخ نواف الأحمد الصباح، بعضها بعفو صدر عام ٢٠٢٣ م.

وَأَمْسَيْتُ أَقُولُ بِمَا يَقُولُهُ أَهْلُ الْمَقَالَاتِ الْفَاسِدَةِ^(١)، وَكَأَنَّ الدِّينَ بِالرِّجَالِ يَعْرِفُ، وَلَكِنَّهَا الْفِتْنَةُ تَعْمِي، وَالْإِيمَانَ إِنْ لَمْ يَكُنْ أَصْلَبُ مِنَ الْجَبَلِ، أَخَذَ مِنْهُ كَمَا يَأْخُذُ الْمَعُولُ مِنَ الْجَبَلِ.

ثَلَاثَ سَنِينَ، انْبَهَرْتُ فِيهَا بِمَغْشُوشٍ، وَانْدَجَجْتُ فِي زَائِفٍ، ثُمَّ عُدْتُ بَعْدَهَا مُتَعَاظِيًا إِلَى سِوَاءِ السَّبِيلِ، مُتَعَلِّمًا أَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ يَسْتَصْحَبَ الْمَرْءَ مَا كَانَ قَاطِعًا بِهِ إِذَا تَسَلَّلَ الشُّكُّ إِلَيْهِ، وَعَارِفًا أَنَّ الْحَكِيمَ لَا يَتْرَكَ الْمُحْكَمَ مِنْ أَجْلِ الْمُتَشَابِهِ، وَمُدْرِكًا أَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَدْعُ مَا لَا يَرِيهِ إِلَى مَا يَرِيهِ، وَرَاجِيًا أَنْ يَجْعَلَنِي اللَّهُ مِمَّنْ يَنْتَصِرُ بِهِمْ لِدِينِهِ، وَأَلَّا يَسْتَبْدِلَ بِي غَيْرِي كَمَا اسْتَبَدَّلَنِي أَوَّلَ مَرَّةٍ.

وَإِذْ غَدَوْتُ خَالِيًا مِنَ الْمَنَاهِجِ وَالنَّظَرِيَّاتِ، رَأَيْتُ الْاِعْتِكَافَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ أَحْجَى، فَاسْتَأْنَفْتُ دِرَاسَةَ الْفَقْهِ وَأَصُولِهِ، ثُمَّ تَأَمَّلْتُ فِي الْوَاقِعِ الْإِسْلَامِيِّ الْمَعَاصِرِ بَغِيَةَ تَشْخِصِهِ، فَوَجَدْتُ فِيهِ مَوَاطِنَ خَلَلَ كَثِيرَةً، وَمِنْهُ أَعَدْتُ النَّظَرَ فِي الْوَاقِعِ الْأَوْسَعِ، فَأَبْصَرْتُ الْعَدُوَّ الْأَكْبَرَ، غَوْلَ هَذَا الْعَالَمِ وَشَيْطَانَهُ، الَّذِي حَالَ الْاِحْتِرَابِ الْمَذْهَبِي بَيْنِي وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ؛ وَإِذْ شَخَّصْتُ عَدُوًّا لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ، كَيْفَ يَهْدَأُ لِي بَالٌ، وَأَنَا الْمَعْرُوفُ بِالْجِهَادِ مَذْكَبْتُ نَاعِمَ الظَّفَرِ؟ أَخَذْتُ فِي صِيَاغَةِ نَظَرِيَّةٍ لِقِرَاءَةِ الْمَشْهَدِ، تَطَلُّعًا إِلَى بِنَاءِ مَشْرُوعٍ يَرْتَقِي مَا انْفَتَقَ مِنَ السَّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ، نَشَرْتُهُ فِي كِتَابٍ^(٢).

وَبَيْنَ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ وَتِلْكَ الْقِرَاءَةِ، صَحَبْتُ أَنَا سَا تِنْدَارْسُونَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، كَلِمًا سَبَرُوا أَغْوَارَهُ أَخْرَجُوا لَأَلَى فَرِيدَةً، فَعَزَمْتُ عَلَى تَدْبِيرِ آيَاتِهِ، لَعَلِّي أَغْنِمَ لَوْلُؤَةٍ كَمَا كَانُوا يَغْنَمُونَ.

دِرَسْتُهُ، فَأَلْفَيْتُهُ كِتَابَ هِدَايَةٍ، لَيْسَ شَعْرًا، وَلَا نَثْرًا، وَلَا مَتْنًا عِلْمِيًّا، وَلَا سِيرَةً مَدُونَةً، بَلْ جَامِعٌ بَيْنَ ذَلِكَ كُلِّهِ يَسْمَى الْقُرْآنَ، وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ، لَا كَلَامُ رَسُولِهِ، وَلَا حَدِيثُ مَلَائِكَتِهِ.

(١) انظر: «عكازة مستحور»، ٢٠١٨م.

(٢) انظر: «نفير الثُّبَاتِ»، ٢٠٢٣م.

ثم قلبته، فوجدته دليلاً مرشداً لمن يرعى أصوله، وإماماً مردياً لمن يلوي نصوصه؛ وأيم الله، إن المذاهب والفرق جميعها لقادرة على إقامة أدلة من القرآن على صحة معتقدها.

بل وعجمته، فخبرته مصوناً من التحريف، وصل إلينا من صدور حملته، منها إلى العصب والرقاع والخفاف، حتى عم الدنيا بنسخه؛ بيد أن تحريف مدلولاته جادة مسلوكة، غير أن ذلك لا يستمر، لمشيئة اقتضت صرف التحريف والتزوير والتناظر عنه.

وإني تدبرته، فوجدته عجيبياً كله، إذ أوجد العجز حقاً، وخرق النواميس فعلاً، فكيف يمكن أن يظهر مثله بين ظهرائي مجتمع جاهلي، وعلى يد أمني لم يحضر المدارس، ولم يتعلم على المشايخ؟ وإني تفحصته، فتأصل عندي أن الله خاطب خلقه بالقرآن خطاباً يفهمونه، لم يخترع طرائق للتفهم جديدة، لكن الحاجة دعت إلى منهج ينتظم به الفهم، ويكون طريقاً لأهل الفن يصلون به إلى مراد النص ومقاصده ومدلولاته، فيتبعون أوامره ويتعدون عن نواهيه.

نظرت فوجدت أن المناهج عديدة، أحصاها معاصر في أربعة عشر منهجاً، إلا أن التحقيق يقود إلى أن التي استقر عليها القبول أربعة، أعرقها فهم التنزيل بالتزويل، وقد وجدت فيه دوراً ظاهراً إذا احتجز الفهم به، إلا اللهم إذا أردنا الإحاطة بأدب هذا الكتاب المعجز وطبيعة لسانه الفريد. ومن بعده منهج يفهم الوحي بالأثر المروي عن مبلغ الوحي، وقد وقفت فيه على إشكال أفردت له نقاشاً في «الحجرات» و«الحشر»، فلو كان ما بين أيدينا من التفسير بالمأثور مجمعاً على صحته لوجب دون غيره، ولكن العلة ليست في ذات تفسير الرسول، وإنما في الخبر الناقل لتفسيره.

وبعد، فثم منهج ثالث يركز على العقل، وهو منهج لا يخلو من مخاطر كبيرة، ذلك أنه يعتمد على الرأي الخالي، وقيم الدين على الظنون والاستحسانات، ومن يفعل ذلك فإنما يفترى على الله بفعله؛ ولم تتشعب المذاهب في فهم القرآن العظيم إلا بعد أن تسللت الفلسفة اليونانية إلى أوساط المسلمين، فدب الخلاف حتى في الواضحات، ولم يسلم من ذلك سوى لفظ الشهادتين،

دون معناهما، ثم مضى كل مذهب يفسر الآيات وفق أصوله المذهبية، حتى غدا محكوماً عليه، والأحرى أن يكون هو الحاكم على ما سواه.

ورابع هو الاعتماد على أقوال اللغويين، والصواب أن أقوالهم لا حجية لها، لأنهم غير عارفين بالاستعمال؛ والصحيح أن القرآن، وإن نزل بلسان العرب، إلا أن له الحاكمية على قواعد ذلك اللسان، وكما يجوز في الشعر ما لا يجوز في غيره، يجوز -من باب أولى- في القرآن، فله الإجازة في رفع ما نحسب أن نصبه صواباً، وجر ما نخال أنه مبني على الضم، وهكذا دواليك.

ها قد مضى على ظهور هذا الإعجاز أربعة عشر قرناً، ولم توله المناهج حق الرعاية والعناية، وبما أننا عن عصر النص أبعد، فقد اخترت في الصنعة منهجاً أراه إلى الحق أقرب، وهو الاكتفاء بالقدر المتيقن من مقتضى كل آية: منطوقها ومفهومها ومعقولاها.

فلما كان لكل كلام نطاقان: نطاق حتمي الدلالة، كدلالة الأمر على الحث، وآخر حمالي أوجه، كما في دلالة ذلك الحث، الذي قد يكون على الوجوب يدل أو على الترغيب، فإن منهجنا المختار لا يحقق في الاحتمالات ولا يتأمل فيها، بل يبني على أرقى مراتب العلم، على ما يورث القطع أو الاطمئنان إثباتاً.

إني قويت على النظر في إحدى وسبعين آية، من «البقرة» إلى «نوح»، انتخبت واحدة من كل سورة للنظر فيها، ملتزماً بالقراءة المتواترة المروية عن حفص بن سليمان الأسدي، ربيب عاصم بن أبي النجود الكوفي؛ أعملت النظر، ثم دونت ما فتح الله به علي، فسميته «المجرى والمرسى»، وقد تخرجت ابتداء تسمية ما كتبته تفسيراً، وإنما ارتضيتها من بعد إبانة عن غرض الكتاب وموضوعه.

ولما رأيت نفسي مراهقاً للاجتihad، أفتيت في الأصول والفقه بموجب ما انتهى إليه التحقيق في دلالات الآيات المنظورة، ولم تكن تلك الفتاوى بقصد أن يعمل الآخرون بها، وإن كنت أرى أن نتائجها تمثل الحق الذي توصلت إليه في المسألة.

أما علة توقفي عن النظر في بقية الآيات، فهي اعتقالي من قبل السلطات البريطانية بموجب قانون مكافحة الإرهاب^(١)، ولم يكن ذلك الاعتقال إلا ضريبة لمواقفي الجريئة في دعم القضية الفلسطينية ومقاومة الكيان الصهيوني؛ وما إن أطلق سراحي بكفالة، حتى هرعت إلى طباعة الكتاب على هناته وعلاته، خشية أن يضيع جهد سنة من الاجتهاد.

١١ صفر ١٤٤٥هـ / ٢٧ آب ٢٠٢٣م

(١) اعتقلت في ٢١ أيلول ٢٠٢٤م، بعد يوم واحد من خطاب كنت قد ألقيته عند مقر إقامة السفارة الإسرائيلية في لندن، تسيبي هوتوفلي.

البقرة

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

الاستهزاء استهانة يريد بها صاحبها التسلّي واللعب؛ ألوانه: الهمز، واللمز، والغمز، والمحاكاة، والتنابز، والتعريض، والتهمك.

ولأجل ذلك، استعصى معناه في المقام المزبور على بعض فحول التفسير، إذ رأوه من خصال الجاهلين التي لا تليق نسبتها إلى ساحة القداسة: «قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين»^(١)؛ والحق أنه جار على نحو المشاكلة، ذلك أن الأفعال تتلقى من جنسها أفعالاً، فمن يستهزئ بالأنفس المعصومة والآيات والعلامات يستهزأ به، ومن قال لشعيب: «إنك لأنك الحليم الرشيد»^(٢)، يقال له: «ذق إنك أنت العزيز الكريم»^(٣)!

(١) آية من سورة «البقرة».

(٢) آية من سورة «هود».

(٣) آية من سورة «الدخان».

آل عمران

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

لما خلق الله أبا قابيل، أوجده من غير امرأة ولا فحل يلدانه، فلم يكن نطفة، ثم علقه، فمضغة، وإنما خلق منذ البدء كبيرًا بالغًا؛ ولما خلق ابن مريم، جعله يتولد من امرأة بلا فحل، وذلك بعد أن مر بصيرورات الحمل قبل الولادة؛ فالمماثلة هنا في وحدة العلة لا في طبيعة المعلول، وهي مماثلة استدلالية تقيس الغريب على الأغرب.

ولئن كانت الشبهة النصرانية ناشئة لا لكون الولادة إعجازية، بل لما عاينوه من أفعال تشبه صفات الربوبية أجريت على يديه، فإن الكلیم كان إذا ضرب بعصاه الحجر انبجست منه العيون، وإذا ضرب بها البحر انفلق، وإذا ألقاها انقلبت زاحفة تسعى؛ أفيستقيم -على هذا المنطق الأعوج- أن يتخذ معبودًا؟

ولسوف يوقف عيسى، بسبب أولئك المغالين، موقف الحساب: «أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله»^(١)؛ وهناك سيتملص من كل منزلة أنزله إياها المفرطون، وهو منها بريء، بل بعيد: «سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق»^(٢)!

بل الظاهر - والله أعلم - أن موقف المسألة هذا سيقف فيه كل نبي ووصي وضع زورًا مواضع الغلو، كمن زعم له علم الغيب ووساطة الفيض؛ وليت شعري، كيف يقول بمثل تلك المقالات الفاسدة من ينسب نفسه إلى الإسلام؟ لعمرى، لو شاء الله لأهلكهم جميعًا: «قل فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه»^(٣)؟

* * *

(١) آية من سورة «المائدة».

(٢) عجز الآية السابقة من سورة «المائدة».

(٣) آية أخرى من سورة «المائدة».

النساء

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾

توصية وتوجيه صادران عن القيادة العليا، وموجهان إلى جنودها؛ أما التوصية فبأخذ الحذر، وقد قيل: إما السلاح وإما الاحتراز، والثاني أرجح لأنه أشمل؛ وأما التوجيه، فحيثما كان النفير الجماعي أنسب فبه، وإلا فالنفير الثباتي، نفير الجماعات المتفرقة، العصابة تتلوها عصابة منفصلة، أو الفرقة تعقبها فرقة منفصلة، بديل لا يسقط.

وإذا تقرر ذلك، فإن حرف العطف يدل على الواجب التخييري في حال السعة، وبذلك يكون النفير الثباتي خياراً تبادلياً لا يسقط إلا بالآتيان ببديله من خصال التخيير.

وباختلاف عدة العدو وعتاده، قد ينقلب التخيير بين الفعل وعدله إلى وجوب أحدهما، كخيار استثنائي يلجأ إليه في حالات الحرج

بل قد ينقلب التخيير البدلي في هيئة النفير إلى وجوب عيني استغراقي ومجموعي، أي: انفروا ركباً ومشاة، شيوخاً وشباباً، أفراداً وعسكراً.

المائدة

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾

لما تخلى النوكى عن جهاد من أمروا بجهاده، وعلى رأسهم نبي موعود بالظفر، هب رجالان لإذكاء حميتهم، رجاء أن يخاطروا بأنفسهم للذي برأها.

فالقائلون هم صحابة الكليم، وقد كان قولهم خالياً مما يستعمل في الخطاب المؤدب مع الناحية المقدسة، كأن يكونها أو ينادوها بالنبوة أو الرسالة، بل بلغ تماديهم حد الاستخفاف بمقام الربوبية، إذ قالوا: «فاذهب أنت وربك»، أي: أليس هو معك يسمع ويرى؟

ولا يبعد أنهم، بنسبة الذهاب إلى الله، أرادوا الإعراب عن حقيقة اعتقادهم بأنه يغدو ويروح جسماً؛ وقد تأوله بعض الأعلام، فذهبوا إلى أن القوم إنما أرادوا بالرب هارون، وهو تأويل بعيد، إذ لم يكن تعبير مثل هذا جارياً: «قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي»^(١)؛ قال: أخى.

ولم يخل منطق صحابة المسيح من تناول لفظي مماثل: «يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك»^(٢)! في حين كان المنافقون من صحابة الخاتم بين مد وجزر، مد بكلام مشوب بشيء من الأدب، رغم

(١) آية من سورة «المائدة».

(٢) آية من سورة «المائدة».

إضمارهم الكفر وإظهارهم المعاذير الهشة: «ائذن لي ولا تفتني»^(١)، و«شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا»^(٢)؛ وجزر بجرأة وتجاسر: «هو أذن»^(٣)، و«ليخرجن الأعز منها الأذل»^(٤)! ولأجل تقويم هذا المسلك، جاء في الكتاب المنع من أن يقدم على أمر جامع دون استئذان النواحي المقدسة: «إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله»^(٥)؛ والزجر عن مناداتها كما ينادى الرفيق: «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً»^(٦)؛ والنهي عن التقدم عليها: «لا تقدموا بين يدي الله ورسوله»^(٧)؛ والردع عن رفع الصوت فوق صوتها: «لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي»^(٨).

تلك آداب جامعة، ويبقى الأمر: أنى للرجل بالرجل كله، وأي الرجال المهذب؟



(١) آية من سورة «التوبة».

(٢) آية من سورة «الفتح».

(٣) آية من سورة «التوبة».

(٤) آية من سورة «المنافقون».

(٥) آية من سورة «النور».

(٦) آية من سورة «النور».

(٧) آية من سورة «الحجرات».

(٨) آية من سورة «الحجرات».

الأنعام

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذْ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

مبدوءة بـ«قل»، وهي تكليف بصيغة أمر صناعية بترديد سؤال استنكاري لا استعلامي؛ وإنما خرج السؤال عن حقيقته الاستفهامية، لأن الخلق جميعاً لا يملكون من أمرهم شيئاً بداهة، لا في مضيقهم ولا في رواحهم، بل هم فقراء إلى معين معبود.

ومع هذا، فإن الآية لا تنهى عن مطلق الموالاة، بل عن مولاة ولي يعبد ويرجى؛ فمن المشهود أن البشر يتخذون من بعضهم أولياء جبلة، غير أنهم يضعفون وينكصون.

وبعد التكليف الأول يجيء ثان، وفيه أمر للرسول بترديد مقول قول مقتضاه أن يبدأ من حيث هو؛ وهكذا يمتد المبدأ التكليفي تباعاً من الداعي الأكبر طوياً إلى سائر الدعاة، ذلك أن النفس نواة الإصلاح، إن كان ثمة جد للإصلاح.

الأعراف

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

يساق المشهد بصيغة الماضي إنباء عما سيصير، ودلالة ذلك أن الأمر واقع لا محالة؛ فإذا ما انجلت الأوهام، واستحال الغيب شهادة، تناظر المصدقون والمكذبون، كل من محشره: هذا مستهزئ بنزلاء دار الشقاء، وذاك مستنجد بسكان دار السلام؛ فتحسم الملائكة المشهد إيداناً بخلودهم في النار، ثم لا خطاب لهم.

سيقولون: «نعم»، وإنها لنعم، فلا مفر لأولئك الضالين من قول سوى نعم، بعد أن كانوا يستبعدون يومهم هذا بإكثارهم من اللاتعات كلما دعوا إلى الطريق.

وأما قول أهل النعيم: «فهل وجدتم ما وعد ربكم»، فيبدو أنه مسوق مساق المحاجة، إذ رب الفريقين واحد، لكنهم أرادوا التنديد بالشركاء الذين رفعوا إلى مقام الربوبية.

يوم ما أعصبه! تنكس فيه رؤوس، وترفع أخرى.

* * *

الأنفال

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

الجملة الاستثنائية حمالة أوجه؛ فقد تكون عتاباً من الله لنبيه على إعماله النظر وترك الأولى، أو توبيخاً منه لأصحاب نبيه، أو لوماً من النبي لأصحابه. ومهما يكن الوجه الصائب، فإن الخطاب مصحوب بنهي مشروط، مفاده ألا يصح للأنبياء، بعد التمكين، أن يكون لهم أخيد يحتبسونه أو أسير يسجنونه، إلا إذا بالغوا في تصريح الكفار وتقتيل المشركين بحسم يجعلهم جثثاً وجثامين تثقل الأرض؛ وذلك هو الإثخان، وهو غير الإبادة. وأياً يكن المحمل، فالمقصد هو التأسيس لأدب في شريعة الغزو، يقوم على اعتبار المقاتل تحت إمرة النبي مجاهدًا لا محاربًا، ينقاد لكل تقدير بلا صوت.

التوبة

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا أَوَّاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

يعود ضمير الجمع في الفعل إلى المنافقين الذين قعدوا، ويتعلق ظرف الزمان بالفعل مقيداً بوقت رجوع الجيش الإسلامي من غزوة العسرة (تبوك)، أما المحلوف لهم فهم المجاهدون، وأما المحلوف عليه فمضمر.

في الخطاب أمر لأهل الثغور بالإعراض عن أهل الدثور، مع إبقاء مشاعر المقت نحوهم، فلا يجوز منحهم رضاء ولا طيب خاطر، وإن اجتهدوا في الاعتذار وبالغوا في الحلف الغموس، إذ ليس أبلغ من الصد إهانة، بأن يخلوا وما اختاروا لأنفسهم، بلا تأنيب ولا معاتبة، كي لا يطمعوا في الفساد، وليعيشوا اضطراباً نفسياً وعزلة اجتماعية.

وزيادة على هذا الإجراء، حقرهم القرآن بأن ساءهم المخلفين، وحجمهم بأن قرنهم بالخوالف، ونجسهم نجاسة باطنية؛ والرجس هو كبرى علة الأمر بمتاركتهم، بضميمة قوله: «إنهم»، أي: أعرضوا عنهم لأنهم رجس.

شتان بين الخوالم والمخلفين، إذ لا تثريب على الفريق الأول ممن عذرهم الشارع ورفع عنهم
التكليف والوظيفة والخطاب، ذلك أنهم -رغم تلك المعاذير- لا يزالون يتوقون إلى سياحة
الجهاد، يحدثون أنفسهم بها، وتدمع أعينهم على ما فاتهم منها.

* * *

يونس

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾

اعلم أن المتملصين من لقاء الله إنما يتملصون من أمر لا محالة واقع؛ ثم اعلم أن الآية واضحة مفهومها: من ترقبت نفسه الوقوف بين يدي الله، ومن الحياة الدنيا احترس، فله الجنة؛ ومنطوقها أوضح: النار مأوى من لا يرجو الحشر إليه.

وعلى هذا، فإن أمر الراكنين إلى العاجلة لا يخلو من خطر، إذ إنهم يريدونها اعوجاجًا، بل «ويبغونها عوجًا»^(١)؛ فهذا فرعون، لما ظن أنه لن يلقى الله، عتا «واستكبر هو وجنوده في الأرض»^(٢)، بيد أن الذين يرجون لقاء ربهم يتورعون «ويخافون يومًا كان شره مستطيرًا»^(٣).

* * *

(١) آية من سورة «إبراهيم».

(٢) آية من سورة «القصص».

(٣) آية من سورة «الإنسان».

هود

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

أَيكون الداعي السماوي بشراً كغيره يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ وأنى يتكفل بالدعوة من هو ضامر ضعيف؟ وكيف يؤم الناس معوز لا مال له ولا ثروة؟ ولأي سبب يجتبي من لا يرى له فضل على غيره؟

شروط تتلوها شروط، واقتراحات على الله تتلوها اقتراحات، ومعايير للنبوّة ومقاييس للرسالة يضعونها من تلقاء أنفسهم، وأبى الله أن يكون الأمر إلا هكذا، ليكون البلاء محصّاً، ولتقبل النبوة دون قيد، وترضى الرسالة بلا شرط.

وهكذا صاغ نوح بيانه متجرّداً من كل دعوى: بشر معلم، مخصوص بالرسالة، ومعصوم إذ بلغها، عن الماضي غافل، وعن المستقبل محجوب، لا بيده مقاليد الكون، ولا هو يملك تزكية أحد، إذ البشر في جنبه التكليف سواء؛ فمن آمن حاز شرفاً يربأ به عمن لم يؤمن.

يوسف

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾

بحكم العبرة المستقرة من الألفاظ الخادمة لمعانيها، فإن الآية في مقام الكشف عن الحالات القلبية لعموم الداخلين في الرتبة؛ فأنت إن تأملت وجدت الخطاب القرآني يميز بين الإسلام والإيمان: الأول صفة يتلبس بها المرء وتندر موارد انتزاعها منه، فهو بذلك مستقر إلى أن يأتي صاحبه بكفر بواح ينقض به إسلامه؛ والثاني مستودع، يروح ويحيى، يحتاج إلى ملاحقة واستدراك ما عمر المسلم وعاش.

قد يدعى أن ضمير الغائبين في «أكثرهم» يعود إلى المشركين، وهي دعوى لا أقول إنها ظاهرة الوهن، بل قد تنهض وجهًا معتبرًا في مثل ههنا؛ ووجه ذلك أن المناط متعلق بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، إما بالبناء على سياق الآية، قبلها وبعدها، من غير اجتزاء، وإما على أسباب النزول من الخبر والرواية.

* * *

الرعد

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا
ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا
كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

في «الرعد» إشارات جمة إلى الأمارات الكونية والبراهين الإنية الدالة على الله؛ كما أن الخطاب فيها، على غير العادة، يتسم بالإغارة في البيان، من أوله إلى آخره. تبدأ الآية بـ«قل» تتبعها قلاقل تكليف بالمساءلة بصيغة الأمر، وليس الاستفهام هنا مسوقاً للاستنطاق، بل هو توبيخ واستخفاف بمكانة المعنيين، إذ سئلوا من قبل، فأجابوا: «الله»^(١)، ثم هم بعد ذلك يبتغون إلهًا غيره؛ ألا إنهم قوم عمون!

* * *

(١) إشارة إلى ما ورد في سورة «الزمر» من إقرار المشركين بأن الله هو خالق السماوات والأرض.

إبراهيم

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

تصوير للحممة من ملاحم يوم القيامة: يستغيث أهل النار بالله: «ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون»^(١)، فيأتيهم الرد الصاعق: «اخسئوا فيها ولا تكلمون»^(٢)؛ فإذا استبد بهم اليأس، قصدوا أعضاد الضلالة، وحضنة الكفر، وأشياخ الباطل: «إنا كنا لكم تبعاً»^(٣)، ولا يملك أولئك لأولئك نصراً ولا نجاة.

ثم يلتفتون من بعد إلى الشيطان وهو واقف يخطب فيهم بجوامع الكلم وفصل الخطاب: إني منكم اليوم بريء، وكانت وعودي كلها باطلة! ولعل وقع كلامه يكون عليهم أشد من سجين والسعير والحطمة والجحيم.

(١) آية من سورة «المؤمنون».

(٢) آية من سورة «المؤمنون».

(٣) آية سابقة.

وما كان خبث أبي مرة يومًا محتجبًا، فقد أظنّب القرآن من قبل في التنبيه إلى أنه فاسد من رأسه إلى أخمصه، إذ الشر يسري في كيانه، وطبعه الخيانة، وحرفته الغواية، وصنعتة الضلالة، قد عقد الأيمان الغليظة ليغوين بني آدم ما عمر وعاش؛ فيا خيبة أشقياء آثروا الشقاوة بلا سلطان لمطاع عليهم، سوى أنه دعاهم كما دعتهم الأنبياء والرسل، ففضلوا دعوته على دعوتهم الصحيحة!

* * *

الحجر

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

تسلياً للنبي وللمؤمنين به، ورداً على الذين تطاولوا على حضرته وجنابه، إذ رموه بالجنون لما تلا عليهم التنزيل.

وفيها تأكيدان بـ«إنا»، واستعمال المتكلم ضمير الجمع لنفسه إنما هو لتعظيم ناحيته المقدسة وتفخيم ساحته المهيبة، لا لإفادة الجمع العددي؛ والنهج هذا غير نادر في النسق القرآني، بل يلحظ كثيراً عند اقتران الدلالة بصفات الأفعال، على أن ذلك ليس مطرداً، بل رهين بما يقتضيه مقام الحكمة التي تدور معها الاعتبارات الأسلوبية، فقد يتوقع في موضع ثم لا يكون.

ثمة شيء منزل مصون تشير إليه الآية، شيء محروس من التلاعب والتحريف، معصوم من التعديل والتبديل، تعهد منزله برعايته، وسماه «الذكر»؛ وهو كلام متعال، صير من كينونة غيبية إلى أخرى مشهودة، فغدا قرأنا عربياً في قوالب لفظية وتراكيب إنشائية.

ولما كان كذلك، كان حفظه ضرورة تستدعيها منزلته العلوية، فاتخذت قلوب المسلمين أوعية له، ويسر تواتره، وأقيم مهيمناً على كل كتاب، وذلك هو مقتضى الإطلاق في قوله: «لحافظون».

النحل

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

شرط متكرر في الكتاب قاض بالآ اعتبار بعمل لم يعتقد قلب صاحبه على التصديق بما جاء فيه،
وبذلك غدا العمل الصالح اسمًا لحقيقة شرعية تعينية تسلب عمل غير المؤمن صفة الصلاح -
وإن بدا في عين الناظر كذلك -.

وكما ترى، فإن الشرط يستوعب الجنسين معًا: الذكر والأنثى؛ وقد نص عليهما تأكيدًا لتساويهما
في قاعدة الجزاء، وإن كان في مطلق اللفظ ما يغني عن التصريح.

يلي الشرط جوابه: «فلنحيينه»، «ولنجزيهم»، وهو جواب بلام لا تراخي فيها، تحقيقًا لمرام كل
دابة ذات تكليف على ظهر المعمورة: حياة طيبة في العاجلة، وجزاء أوفى في الآجلة.

أما حقيقة هذا الموعد العاجل، فهي أن يصبح المرء ويمسي غير مضطرب الضمير، فإذا تفرست
في وجهه، وجدته كأنها حيزت له الدنيا.

الإسراء

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾

نهي يراد به الزجر عن هيئة من المشي يكون فيها صاحبها مختالاً فخوراً.
الفاعل في الخطاب ضمير مستتر تقديره: أنت (يا محمد)، كما يجوز حمله على التعريض، لاحتمال أن يكون نازلاً عليه، لا فيه، فيجري مجرى: إياك أعني، واسمعي يا جارة.
مقصود الزجر هو الدعوة إلى الاقتصاد في المشي، كي تكون سمته الرزانة والاعتزان، السكينة والوقار، كما أن المناط يستغرق الجري والركض والسير والعدو، فكلها داخلية في هذا المعنى.
وأما قوله: «في الأرض»، فهو استعمال فصيح، إذ إن حرف الجر المختار أدق في تصوير واقع المتكبر، وأليق في توهين شأنه، وأبلغ في تحقير زهوه؛ فكيف يتكبر من خلق من أدمة أرضية وسوي من نطفة منوية؟ فلا هو بالغ خرق البسيطة بما يفعل، ولا مطاول شاهق قممها.
ما مشاعر الافتخار إلا آفة تتولد من عبادة الذات، حين يجعل المرء نفسه قطب الرحي، فإن هو فعل، أخذه العجب مآخذه، حتى يورده المهالك.
تلك خلاصة الموعظة السادسة عشرة وجوهر حكمتها، قد صاغها الباري في قالب بياني بديع، وتصوير بلاغي طليق: يا ابن آدم، ضعيف أنت، فدع عنك الاختيال والتطاول.

قد علمت بعد هذا أن لكل جراحة معصية، ومعصية القدم التبخر؛ ومع ذلك، فإن هذا الكتاب محكمة آياته إحصاءاً، لا يقبل الإفراط ولا يرضى التفريط، فجعل التبخر في سوح قتال الكفار وميادين حربهم ممدوحاً، استطالة عليهم وإرهاباً لهم.

* * *

الكهف

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾

في الكتاب المجيد أمثال ماثلة، هي أثمر من الكلام المجرد وأنفذ من الحديث المرسل؛ وقد اشتملت الآية المنظورة على مثل من تلك الأمثال المضروبة، إذ صورت مشهداً يخال طول المدة، فإذا هو يوجز في بضع كلمات، حتى لكان حلاوته وزخرفته، وزبرجه وحبسته، لم تكن أبداً. هذه الدنيا، على تمام أبعثها، كما مطر أنزل من السماء مأموراً إلى الأرض، فاحضرت به وأورقت، ثم ما لبث أثره أن تلاشى وزال.

وكما ترى، فإن التشبيه يرتكز على عنصر من عناصر الدنيا نفسها، وفي ذلك نكتة فلسفية بالغة الدلالة، لكونه انتقالاً من الجزئي إلى الكلي، فتأمل هذا ودقق فيه. ثم إنك واجد هذا التصوير مطرداً في ثنايا القرآن، يفصح تكراره عن دقة التناسب بين الصورة والمصور، وتمام الانسجام بين عناصر التشبيه، وحسن التوافق بين أركان المقارنة.

مريم

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾

لما خشي زكريا أن تخلو الأمة من ولي لعهد، وقد صار أبت، لا يرجى له ولد يقوم فيهم مقامه، استجاب الله دعاءه، فوهب له خليفة يرث النبوة ليسوس قومه بالأحكام الشريفة.

ينعطف الخطاب من حضرة زكريا إلى جناب يحيى، بندا من مناد محذوف، في إشارة لطيفة تؤكد نبوءة الأب، ومباشرة عظيمة تصدق نبوة الابن.

أما الكتاب المأمور بأخذه، فهو توراة موسى نبي بني إسرائيل، قد أمر هو الآخر بأخذه باستحكام، والعمل بما فيه بعزم، والدعوة إليه بدأب؛ وليس الكتاب مما يثقل على حامله، وإنما يثقله ما فيه من التكليف، تصديقاً وعملاً وتفعيلاً.

في الآية مسائل مركزية: أولها أن الدين متين، لا يليق بالترهل الفاتر الآخذ بالرخص حمله؛ ثانيها أن الحملة المصطفين لا يلهون ولا يلعبون، ليست فيهم دعاة، وليسوا تلعاة، لا يعافسون ولا يمارسون، وإنما خلقوا للجد، لأمر عظيم؛ وثالثها أن «الحكم» مشترك لفظي، استعملته الآية اسماً للنبوة.

طه

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾

ذلكم الله، المتفرد وحده بحق الطول والإفضال؛ وما عطايا مخلوقاته الناطقة إلا مجازية، تخرج من يد لتعود إلى يد المنعم الأول، ذلك أن أملاكهم اعتبارية.

حتى إذا حلت ساعة الاجتباء، وثبت قلبه، وربط على جأشه، وسدد نطقه، وآزره بوزير من أهله، ذكر المنان مختاره الجديد، موسى، بكلاءته التي أحاطته في شؤونه الماضية، تلك التي انقضت أيامها وانصرمت آلامها؛ منة تتلوها منة، تتقلب بين ظاهرة ومستورة ومخبوءة، في استذكارها طمأنة تشي بعناية مطردة، ليس شيء منها عن استحقاق أو استيجاب.

الأنبياء

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾

لكل بداية نهاية، حقيقة راسخة يدركها العقلاء، يربو على استيعابها الصغير، ويهرم على فهمها الكبير؛ فكل محدث يشيخ ويبل، وكل كائن يتلاشى ويفنى.

كانت البداية عظيمة، وستكون النهاية مثلها؛ ستعود السماء إلى حالها الأول، يوم كانت رتقا قبل أن يدركها الفتق، بل هي صائرة إلى العدم المحض، فكما وجدت منه ستؤول إليه وتعود. ولئن كان ثمة شك في سريان هذه السنة على أطروحة من الأطاريح لدى أرباب الفيزياء وفحول الفلك وأساطين الرياضيات إزاء مآل الكون، فإن الأصالة للاستصحاب، أليس يحسم الجدل ويقطعه؟

معضلة بلا معضل، أعيت المتنكرين لوجود خالق للكون، فتخطوا بين وهم الأزلية وغفلة الأبدية، معرضين عن مقتضيات القواعد ولوازم الأحكام العقلية؛ إذ الكون كشأن أجرائه، لم يكن، ثم كان، ثم لن يكون!

ألا ترى في هذا النسق القرآني ثقة لا يمتلكها إلا الحق؟ لقد ادعى أرعن من قبل الألوهية، وانتحل أخرق الربوبية، بيد أن أحداً لم يجرؤ على ادعاء خلق السماوات والأرض أو القدرة على طيهما، ما خلا الله.

ثم ألا ترى كيف أن ما نراه عظيمًا يبدو في نظر المتكلم هينًا؟ هذه السماء المهيبة ستلف لفًا بلا تعب ولا نصب ولا لغوب!

إن هذا الوعد قد ألزم الله نفسه به، وهو لا يخلف الميعاد.

* * *

الحج

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾

أمر للإمام إبراهيم يقتضي الفورية في الامتثال، مشفوع بوعد يرفع الإبهام ويزيل الحيرة، بأن أذانه مجاب، ودعوته ملباة.

وما مظنة صرف الخطاب إلى الخاتم إلا زعم يدفعه النقل وبأباه السياق؛ وتبعاً لهوية المخاطب يعود الضمير في «يأتوك»، فهو الذي يؤتى في حياته، وبعد مماته يؤتى مقامه.

الحج في أصل اللغة القصد، غير أن كثرة استعماله في الشرع بمعناه الخاص جعلته دالاً على الشعائر المقررة لأداء هذه الفريضة.

ولئن كانت الفلاة حينئذ خالية، والبيداء وقتئذ خاوية، فلسوف يمثل للنداء من البلدان القصبة والأمصار البعيدة مشاة معسورون وركبان ميسورون، قلوبهم تهوي إليه، كلما سمعوا النداء ووجدوا إلى تليته سبيلاً، والناس يومئذ سواء سواء: الملك والمملوك.

لقد نادى الخليل وأسمع الوكيل؛ فليكن اللهم ليكن، ليكن لا شريك لك ليكن.

المؤمنون

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾

طالت الحياة أو تعجلت، فإما بوعكة أو مرض، وإما بإماتة أو غرق، ستسمع حشجة قبل
الغرغرة وبعد السكر، فإذا بالمنية تدهم زؤافًا، والحمام يوافي زؤامًا.

تصور الآية مشهدًا من مشاهد الموت، مستجلية حال المحتضرين الذين لم يتجهزوا بزيادة ولا قوت
لما هوآت، واصفة هيئتهم وهم يواجهون الحقائق مجردة، مبرزة لهفتهم على الرجعة بين استعطاف
واسترحام، ولا رجعة، مبينة حالهم وهم يقرون بالربوبية ذعرًا لا إخلاصًا، بعد أن كانوا من قبل
يكفرون بها.

سيرون الحقائق كاملة، وسوف نرى؛ يومئذ لا جدوى من يقين جديد وإيمان حديث، ولا طائل
من دعاء، ولا ثمرة لتوبة.

النور

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

لسورة «النور» مقاصد واضحة ومحور إيماني يجمعها: البيت الموقر، والعائلة المحتشمة، والأسرة العفيفة، والتربية المؤدبة، والنسب المصون.

لقد خاطبت هذه السورة أركان الأسرة، نساء ورجالاً وفتياناً، خطاباً يفيض بقيم الإسلام الحضارية؛ وهي من أبين السور في كشف ملاكات الأحكام بناظم جامع: ضبط المجتمع. والقرآن، في عاداته، لا يتوجه بخطاب مباشر إلى الأطفال، وإنما ينيط الأحكام المتعلقة بهم بأوليائهم، ذلك أن أمثالهم بحاجة إلى من يتولى شؤونهم، يدبر أمورهم، ويتصرف نيابة عنهم؛ وهذا هو معنى الأمر بالأمر في الأصول.

في الآية تشريع جديد للحر الذي خرج من حد الطفولة؛ فمن كان بالأمس فرخاً صغيراً يطوف في البيت دون استئذان إلا ثلاثاً، أصبح اليوم - بعدما بلغ حد التمييز وقدر على التناسل - له ما للكبار وعليه ما عليهم، ومن ذلك: الاستئذان.

بهذا التشريع الصادر عن خالق النفوس، العليم بوجوه صلاحها وفسادها، يصون الإسلام الخصوصيات ويستتر العورات، كيلا تنطبع في مخيلة هذا النشء وذاك المحتلم صور تكسر الحياء وتطلق العنان لخيالات جامحة ونظرات محرمة؛ وهذا هو مقتضى قوله: «والله عليم حكيم».

* * *

الفرقان

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾

تاء الفاعل ضمير من لم يتراخ قط في الدعوة؛ والخطاب بها تسلية ترفع اللائمة عنه. وإذا تأملت وجه المفعول به، ألفت الشريعة لم تحذر من شيء كما حذرت من الهوى، حتى غدا التحرز منه ركيزة في فلسفتها، وأصبحت مبارزته جهادًا في منظومتها، وأضحى الاعتناق منه جوهر مقاصدها.

والهوى لا يخرج عن كونه اتباعًا لشبهة، أو انقيادًا لشهوة؛ وهو، في كلا الحالتين، ميل إلى مشيئات النفس، فإن تملكها، بات معبودها هوى متبعًا؛ وحسبك أن من أوطأ عقبه لشيء عبده. ولجهاده ضروب: اجتنابه، ومخالفته، وإماتته بتصويره هوى يطابق هوى الرسول.

* * *

الشعراء

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

قالها موسى تثبيثاً للإسرائيليين من شيعته، ساعة أطبق عليهم جيش فرعون عند حافة البحر يوم عاشوراء، وحين بدا الخطر محتوماً.

ليس النفي نفياً للسنن التي تقضي بأن المحصور لا محالة واقع في المصيدة، بل هو استيقان بالسلامة، مبعثه ضمانه تلقاها فجر البعثة من مسبب الأسباب ومالك القضاء والقدر. المعية هي صحبة عناية وتصويب، وقد أسندها النبي إلى الرب، لأن الربوبية قطب التدبير ومداره؛ أما سين الاستقبال في «سيهدين»، فلا تنفي كونه مهتدياً على الدوام، بل تقتضي تجدد الهداية كلما تجددت الحوادث.

ولازم ذلك كله: وجوب الانقياد لولاية الرسول في كل أمر، بلا اعتراض أو سؤال، ولا استنكار أو استفهام، حتى وإن بدا مؤداه الخسارة والهلاك.

النمل

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾

لما تفرس الملك الإسرائيلي في الملكة السبئية سمات الرشد وأمارات التعقل، تبدت في استشارتها للملأ، وتسميتها كتابه كتاباً كريماً، ومقابلتها إرهابه بهدية، وإعراضها عن خيارات العدوان ومسالك الاستطالة، أراد أن يعجل هدايتها بأسلوب يفضي بها من عبادة الشمس إلى عبادة خالق الشمس، وذلك بإظهار العجائب واستعراض الغرائب.

هنا جاء الاستئناف الذي أغفل فيه ذكر القائل وأبرزت صفته، وقد اجتهد أرباب التفسير في إعرابه وتقديره، وهو اجتهد غير مطلوب، إذ لو شاء الحكيم الإفصاح لأفصح، غير أنه أثر الإبهام؛ ومع ذلك، فليس هو سليمان، وإنما يتردد أمره بين أن يكون نظيراً للعفريت العاتي، أو ملكاً، أو إنسياً حظي بها لم يؤته غيره.

أما الكتاب، فلعله التوراة أو الزبور، أو لا هذا ولا ذاك؛ وأما المجيء بالعرش، فيتأرجح تأويله بين الحقيقة والتصوير، بيد أنه يلفت النظر إلى حقيقة أن القائل لم يكن عادياً فيما يملك، إذ كانت

له القدرة على إحضار العرش المنظور قبل وصول موكب الملكة إلى البلاط السلياني، وذلك قبل أن يذوق العاهل والملا غمضًا، وليس صرف المعنى إلى هذا الوجه ببعيد، لقوله: «أيكم يأتيني بعرشها»^(١).

وثمة قول بأن العرش لم ينقل إلى حضرة الملك نقلًا ماديًا، واستند القائلون إلى منطوق سؤاله: «أهكذا عرشك»، وبظاهر إجابة الملكة: «كأنه هو»^(٢)، ولهذا الوجه حظه من الاعتبار. لم يكن الأمر معجزة محضة، بل علمًا من الكتاب، يتردد بين كونه لَدُنِيًّا أو كَسِيًّا؛ ومن هنا، ندرك أن إعلاء سليمان لشأن ذي العلم على ذي القوة إنما هو توقيف للفيوضات الإلهية، وتقزيم للقوة المجردة، على أنه كان قادرًا على أن يستقل بصناعة نظير عرشها بنفسه، أو أن يجلبه إلى إيوانه دونها حاجة لطلب أو سؤال، غير أن مقامه أرفع من مباشرة الصناعة أو التصدي للإتيان بنفسه. يختم النبي الملك المشهد بقوله: «هذا من فضل ربي»، استشعارًا منه أن النعم كلما تزايدت وتعاضمت، كانت امتحانًا أدق وفتنة أشد.

* * *

(١) آية سابقة.

(٢) آية لاحقة.

القصص

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

الفاعل المستتر الذي تولى السقيا عند ماء مدين ما هو إلا موسى، وكان يومئذ طريداً عائلاً؛ فما حبسه تشرده عن واجب المروءة، ولا منعه شتاته من استيفاء خصال الفتوة، ولا صرفته كربته عن إبداء الفحولة.

وجاء العطف بـ«ثم» دلالة على الترتيب مع التراخي؛ فلما فرغ من سقاية الفتاتين انتحى مكاناً يستظل فيه، شارعاً في مناجاة ربه بلسان الافتقار والتملق، من غير طلب ولا سؤال، مخبراً لا منشئاً، وارثاً لسان يونس: «إني كنت من الظالمين»^(١)، ومقتنياً أثر أيوب: «أني مسني الضر»^(٢)، في إخبار هو أجود من دعاء ذي مناشدة وأرجى إجابة.

وفي قوله: «أنزلت» بصيغة الماضي تأكيد على تفرد الله بالإنزال، فمرجع التاء فيه إلى مقام الربوبية، واللفظ شائع في النظم القرآني يفيد دفع شيء جملة واحدة من علو.

(١) آية من سورة «الأنبياء».

(٢) آية من سورة «الأنبياء».

وأما قوله: «فقير»، فلا يستبين وجه دلالة إلا بتقدير تعديته بحرف الجر (إلى)، إذ بغيره لا يستقيم للفظ معنى، وحذفه يومئ إلى فهمه في مساق القول المقدر، على أن تنكيره يفيد شمول الصفة واستغراقها للجنس كافة.

لقد أوتي موسى بعد همهمته عقيلة تسره، وعملاً يعيله، ووطناً يضمه، والرسالة فوق ذلك كله.

* * *

العنكبوت

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

الرزق ضربان: مادي، كالدراهم والدنانير، ومعنوي، كالسمات والعلم النافع؛ غير أن عناية الآية بالأول أظهر، يستفاد ذلك من دلالة «تحمل».

أما الدواب في طلب القوت فصنفان: صنف يدخر رزقه، وآخر متوكل لا يدخر؛ وكل نفس مرزوقة دابة، وإن خفي عن الحواس دبيبها.

كم من دابة يراها البصير تعيش وتعمر، تغدو خماصًا وتروح بطانًا، لا تجمع لمعاشها، ولا تعنى بتوفيره أو ادخاره؛ وكم من مرزوق يناله رزقه من غير اعتماد على الأسباب الجارية، ولا ركون إلى السنن السارية.

بهذا التمثيل استوفت الآية مقصدها، وأبانت عن غرضها؛ إذ طمأنت النفوس المؤمنة، وبددت الظنون الموهنة، وأعانت على العقيدة الموقنة، ليعلم المخلوق أن الرازق هو الله وحده، يسوق إليه رزقه في حله وترحاله.

الروم

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾

بناؤها اللغوي مقتصد؛ يحتمل نزولها قبيل اندلاع صراع دولي بين قطبين، أو بعيدة، من غير تعيين صريح لهوية الخصم الآخر، وإن كان النظر لا يقود إلا إلى ترجيح كونهم الفرس، وقد حدد فيها الزمكان، كما بينت المآلات المنتظرة.

يتصور أن يكون مقتضاها الإنشاء، كما يحتمل أن يكون الإخبار، غير أن الجمهور ذهبوا إلى الثاني، ومالت طائفة إلى أنها ليست محض هذا ولا محض ذاك، بل جامعة بينهما، إلا أن هذا الرأي -بعد التدقيق والنظر- ضعيف.

إذا حمل الفعل على الإنشاء، كانت دلالته دعاء على البيزنطيين، وإنما جاء بصيغة الماضي لأن إفادته الدعاء أكد، ونحوه: بورك، وجزيت خيرًا، وغفر لك، و«قتل الخراصون»^(١)، و«قتل الإنسان ما أكفره»^(٢).

(١) آية من سورة «الذاريات».

(٢) آية من سورة «عبس».

وإذا سلمنا بصحة هذا المذهب، فإن القول بجريان الآية مجرى الزمان يكون أصح من المذهب الثاني وأقوى، إذ يصبح «الروم» اسمًا لمسمى له مصاديق متعددة، غير محكومة بزمان، كلما دحروا دحروا.

وإذا حمل الفعل على الإخبار، دل على حدث وقع قبيل نزول الآية، وتكون «الروم» حينئذ جماعة بشرية معلومة لدى العرب وقتئذ.

هذه إحدى دلائل صدق النبوة وصحة الرسالة، فإن القرآن الذي جاء به النبي العربي قد اشتمل على قصص الأمم السالفة، وأحداث القرون الغابرة، مما لم يكن في مقدور المكيين سبيل لإدراكها، ولا لأمي درايتها.

والأعجب من ذلك أن القرآن، كما أخبر عن الأحوال القديمة، قد استرسل غير مرة في الإنباء عما سيصير مستقبلًا، خارجًا بنبئه نواميس العادة، ولاجمًا به أفواه من قد يدعي أن نبوءاته من ضروب التنجيم، أو التحليل السياسي، أو الاحتمال الرياضي.

* * *

لقمان

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

اسم الإشارة إشارة إلى صنائع واجب الوجود في منظومة ممكن الوجود، المتمثلة في الأفعال المتقدمة: خلق، وألقى، وبث، وأنزل، وأنبت؛ وهي أفعال انفرد بإسنادها إلى نفسه، ولم ينازعه غيره في ذلك، فكان بسط يده بالخلق والتدبير أمانة على انفراده بالملكية. هذا خطاب جار على مدى الدهر، يعنى به عموم الملحددين بالله والمشركين بألوهيته وربوبيته، ويتوزع لحن الكلام فيه على وجوه ثلاثة: التوبيخ، والسخرية، والتحدي؛ والغرض منه ليس الجدل، بل التعجيز، إذ ليس للمتكلم كفاء يناجزه.

فلما استحال النزاع، أضرب المولى عن المعاندين، مبيناً أنهم إنما ظلموا أنفسهم باعتناقهم غباوة الشرك أو سفه الإلحاد؛ فالشرك غباوة، لأنه انصراف عن الخالق الحق، وإشراك لغيره في القدرة على الخلق؛ والإلحاد سفه، لأنه اعتقاد يقوم على قول متهافت، مؤداه أننا وجدنا من تلقاء أنفسنا!

السجدة

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

بين «العذاب الأدنى» و«العذاب الأكبر» تفاوت، فالأول يحل بأهل الدنيا، وهو قليل المكث يسير البقاء، والثاني يلقيه أهل الآخرة، وهو دائم المقام لا ينقضي، وعظيم لا يطاق. وقد وقفت على قول يذهب إلى أن «العذاب الأدنى» هو عذاب القبر، غير أن هذا القول لا يصح، إذ لا يستقيم مع سياق الآية التي ختمت برجاء الرجعة، وهو أمر ممتنع بعد الموت؛ وأما «العذاب الأكبر» فقد اتفقت كلمة المفسرين على أنه صنوف العقاب وألوانه في النار، وذلك لاطراد استعمال القرآن لهذا اللفظ ومشتقاته نعتاً لها.

يؤدب الله العصاة بعقوبات الدنيا، ويمكر بهم في حيلته، رجاء أن يرجعوا إلى جادة الهدى؛ والترجي، كما في قوله «لعلهم»، إذا كان من عال إلى دان، كان إشفاقاً وتحبباً. وكما ترى، فإن في الآية رحمتين: إحداها أن الله يعاقب ببعض عقوباته في الدنيا لا بكلها، وذلك لمكان حرف الجر الدال على التبعض في الآية، والأخرى أنه يمنح عباده فرصة للإنباة في الدنيا، فإذا هم وصلوا إلى الآخرة دون مراجعة، كان الحكم عليهم باتاً لا يستأنف.

الأحزاب

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾

في القرآن سنن وأمثال، وخطابات وأحكام؛ فمن الخطاب ما هو موجه إلى الناس عامة، ومنه ما هو خاص بالمسلمين، ومنه ما هو إلى جماعة منهم، ومنه ما هو إلى فرد بعينه. تنذر الآية نساء النبي أن لهن من المنزلة الشريفة ما يستوجب مضاعفة العقاب، ووجه ذلك أن الحسن منهن أحسن، والقبيح منهن أقبح، لقربهن من الحضرة الشريفة؛ وليست المضاعفة تكراراً للعدد، بل مطلق الزيادة في مقدار الجزاء.

ولما كان لنساء النبي قرآن خصهن بأوامر ونواه، لم يرغمن على تحملها، إذ راعى ضعيفات العقل وهزيلات العزيمة، فخيرهن بين التسريح إن لم يطقن الحال، والإمساك إن كن يطقنه، ليجعلن في موضع الابتلاء بين اجتتاب خدمة الحضرة وترجيح الفانية، وقد اتفقت كلمتهن على إثارة الباقية.

وبعد، فإنهن -مع هذا التضييق وذاك التشديد- متميزات عن غيرهن، إذ جعلن أهل بيت خير نبي، ما اتقين الله وأطعنه، وبقيت الرابطة ودامت العلقه؛ وهن فوق ذلك أمهات للمؤمنين، إذ

حرم نكاحهن على غير النبي تحريمًا أبدًا؛ وهن بعد ذلك ذوات حظ شريف، إذ عظم للمحسنات منهن أجرهن.

وهنا تنبيه شديد اللهجة على الفسوق الظاهر؛ والفاحشة هي كل ما خرج عن الطور من منكر ومعصية، وإضافة شرط وضوحها قيد لها؛ والمبينة هي التي تين نفسها، مثل فاحشة التسكع في الطرقات مع التبرج قصد صيد الشبان والفتيان.

الظاهر عندي -والله أعلم- أن الآية تشمل الفاحشة المستترة، ذلك لأننا لا نلتزم بحجية مفهوم المخالفة، كما أن الراجح عندي أن الحكم يظل ساريًا بعد عهد النبوة، فيمتد إلى مبارزة الإمام ومناجزة الولي.

عبثًا يحاول من يستثني صورًا للفاحشة كالسفاح، إذ هو استثناء بغير أداة، وتكلف لا مسوغ له، فالكلام ظاهر، والمعنى جلي غير مضمّر، ولو أراد المتكلم الحكيم استثناء لبينه، فضلًا عن أن «التحريم» لا تساعد إلا على إمكان وقوعهن في كل فاحشة.

القول في الثبوت غيره في الإثبات؛ فبينما نهضت الشواهد على تجاوز بعضهن الطور بارتكاب المعاصي، لم ينهض دليل تام محترم على تدنيس إحداهن للفراش، وإن كان ذلك غير مستحيل من جهة الثبوت، كما تقرر.

سبأ

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَآلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾

لئن كانت العطايا برمتها محض تفضل من الله، فإن كلمة «فضلاً» تدل على الزيادة فوق الزيادة، يفيض بها الله على من يشاء من عباده، يختصهم بها، فيرفع بها منازلهم الدنيوية؛ ومن جلي ذلك ما أوتيته أبو سليمان داوود، النبي والملك، قاتل جالوت المحارب.

ينتقل السياق في الآية من الإخبار إلى الإنشاء، إذ تصدر أوامر من الحضرة الإلهية إلى طوائف من خلقه، تكلف الجبال بترجيع ترانيم داوود وترديد مزاميره، وتأمّر الطير أن تحاكي صداها؛ ولا غرو أن تسبح الجبال تسبيحاً يليق بها، وأن تقدس الطير تقديساً تطيقه.

وهكذا ترسم لوحة مهيبية وصورة بديعة؛ يشق صاحب الموكب طريقه بين الجبال الشاخة، والطير تخلق صافات فوقه، في بيئة محفزة وأجواء حيوية، إعانة من الله لنبيه على حسن تعبدته.

ثم يضيف الله شرفاً آخر، بجعل الحديد -على بأسه- ليناً بين يديه، من غير مطرقة ولا سندان.

ألا ترى كيف أن للإنسان القدرة على اختراق الحواجز وتجاوز الحجب، ليغدو على اتصال بالكائنات من حوله، فيفهم منطقها ويستوعب منظوقها؟

فاطر

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

إذا تأملنا جواب الشرط، ألفينا امتلاء الأرض بالخلق ضرورة تقتضيها حقيقتها الوجودية، إذ هي دار عمران وموطن حياة، ليست كعطارد والزهرة، ولا زحل والمريخ. أما الخلق، فهم البشر أولوية، إذ الخطاب مصروف إلى الناهضين لتحقيق غاية وجودهم. وأما الإذهاب، فمعناه الإفناء والإعدام، روحًا وجسدًا، لا مجرد تعجيل الإماتة؛ فإذا وقعت الإبادة، أتى بخلق يوجهون وجوههم، صلاتهم ونسكهم، محياهم ومماتهم، لله رب العالمين. لو شاء لأباد، غير أنه لم يشأ، رحمة سبقت غضبه، وقد شاء من قبل، فنحن اليوم خلفاء قوم نوح من بعد تلك الإبادة السالفة.

السورة، لو تأملتها، وجدت أن المقابلة فيها مركزية، بين غنى الخالق وقوته، وفقر المخلوق وفاقته؛ فالغرض من آياتها هو استعراض استغناء الحق عن عبادة عباده، والتأكيد على أنهم غير خارجين عن حوزة حوله وقوته.

يس

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ
إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

الشبهة، إذا تأملتها، هيئة متكئة على تأصيلات رديئة وتوقعيات ركيكة، تحاكي الحق وتقلده؛ والمغالطة، إذا تدبرتها، سيارة تنطلق بالشبهة إلى ميادين المطارحات ومواقع المساجلات؛ وكما تلتقط السليقة لحن الكلام فتستهجنه، كذلك يدرك العقل المغالطة فيرفضها.

الآية، كما ترى، تسرد إحدى مغالطات أهل الكفر، الذين يعرضون عن الإنفاق كلما دعاهم المؤمنون إليه، متذرعين بحجة يرونها تامة الأركان وصحيحة المقدمات، مفادها أنهم في قبضة المشيئة تسوقهم إلى حيث تشاء، فلو كان المعوزون عيالاً لله، لانقاد أهل المال طائعين إلى البذل لهم والإنفاق عليهم.

في المقابل، يربي القرآن أتباعه على التمسك بالسلامة المنطقية: «أتعبدون ما تحتون»^(١)؟

* * *

(١) آية من سورة «الصفات».

الصفات

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾

أظهر إبراهيم روح الفتوة وجلد الغلام المتحمس حين أهان المعبود الباطل نصرة للمعبود الحق، متخذاً من صك الجباه وإحداث البلبلة أسلوباً في الدعوة، مدشناً به باكورة أعماله الميدانية إثر فصول من المساجلة والمطالبة.

كان يعلم بداهة أن الجهاد خال من الوعي والقدرة، غير أن سؤاله الأصنام مساق سؤال العقلاء لم يكن إلا سخرية مقصودة اقتضاها الموقف، كما هو باد من أسلوب خطابه، وقد حقق بها مقاصده الشريفة.

وبعد، فالروغان مشي على تحايل اتقاء للمنع، ولا يتصور أنه أقدم على فعلته إلا في غفلة من سدنة المعبد وخدامه، وفي غياب رؤوس القوم.

للدعوة طرائق تتراوح بين الشدة واللين، والقوة واللفظ؛ وما كان الخليل ليتخذ الخشونة طريقة قبل حوار وتبيان، فلما آل الأمر إلى جدال، ارتأى استفزازهم وهز ضمائرهم، فكان بأسه حيلة تؤدي إلى الصحو المرجوة وتقود إلى نسف الخرافة.

وأنت تعلم ما للإقدام كهذا من تبعات خطيرة، غير أن إمام الحنفاء رآها هينة في سبيل تشكيل النواة التوحيدية الأولى.

تعال وانظر إلى السيرة التاريخية، لتدرك أنه مضى في مسيرته وهو على وشك رفع قواعد البيت الحرام، ومع ذلك لم يجسه احتمال أن يردوا الإهانة بإهانة مماثلة للكعبة ثأراً منهم وانتقاماً.

* * *

ص

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾

ارتضى خصمان من الرعاة داوود حكماً، ففضى بتغليب دعوى المدعى على المدعى عليه في مداولة واحدة، دون أن يطلب البينة من الفريق الأول، أو يستمع إلى إيضاحات الثاني، وهذا تسرع في القضاء غير محمود، وتعجل في الحكم غير رشيد، لا يليق بمن تسنم هذه المنصة واعتلى منبرها. وكما ترى، فإن الحكم -رغم استناده إلى حكمة متعالية تستقرئ عاقبة الشراكة في غالب الأحوال- يعاني من فساد في الشكل يطرح اعتباره.

في المراد من «الخلطاء» كلام، والمعنى المختار أنهم الشركاء، بقرينة أن ذا النعجة الواحدة قد مزجها بنعاج ذي التسعة والتسعين.

ولما كان عقد الشركة من العقود الجائزة، كان لأطرافه الحق في الفسخ متى شاؤوا، فإن استعصى الوفاق، أصبح القضاء ملاذاً يضع الخصم في موضع من لو ترك لم يترك؛ وإلى هذا الملاذ انصرف المدعى في شكواه، بعد أن استعصى الفسخ عليه بسبب شدة مروته وفرط حيائه من الثاني، الذي

كان ذلكًا طلقًا لا يطاق لسانه، ومن الطريف أن الأول كان ذا لسان أيضًا، قد استمالت حلاوة
بيانه قلب داود، فأعزه وقضى له بلا بينة!

العقد صحيح، فلا مجال للقول ببطلانه بذريعة أن الشركة لا تنعقد بالإكراه، إذ لا إكراه في المقام،
ويؤيد ذلك إقرار صاحب النعجة الواحدة بدخوله فيها احتشامًا، بالإضافة إلى وصف داوود
لهما بـ«الخطاء».

ابتلي داوود في ولايته القضائية، فلما تنبه لزلته أحدث الأبواب توبة معلنة.

* * *

الزمر

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾

استفهام موجب، إذ إن الجواب معلوم: بلى، يكفي عبده، يتولاه ويؤيده، يراعه ويدبر أمره. الخطاب إلى الحضرة النبوية، لمكان الكاف في الفعل المضارع، غرضه تثبيت صاحبها في مواجهة ما يتوعدونه به من مغبة تسفيهه للأوثان؛ وبالجري، ينطبق خبر «أليس» على سائر عباد الله، الذين إياه يعبدون وإياه يستعينون، تحقيقاً لإيمانهم بأن ما سوى الله دونه، وأنه هو الضار النافع وحده. الاستئناف تعجب من التقرير المتقدم، أو إنكار ثان، وفي كلا الوجهين التفات بضمير الخطاب، ولعل إهماله أولاً قصد لتعميم الكفاية.

لعمري، إن من أعجب العجب بعد هذا أن يخاف بعض من أسلم وجهه لله لعنة ولي صالح محبوس بين جنبات قبره، أو هلة إمام عالم!

غافر

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾

لا تنشأ الخيانة إلا عن ميثاق نقضه صاحبه، عرفياً كان أم مكتوباً؛ والتقوى ميثاق بين العبد وربه، والإخلال به خيانة لمن انعقد معه.

خيانة العين مجازية، إذ أسندت إلى غير ما هو لها، ويراد بها النظرات المختلصة والمعاينات المسترقة؛ فاليد تخون بالسرقة والاختلاس، والعين تخون بالنظر إلى ما حرم الله. والتقوى إذا استقرت غدت واعظة تراقب النفس وتقومها، تخرج عليها النفاق، وتصد عنها الخواطر الشيطانية، تمنع الأمانى الكاذبة، وتزجر الشهوات الدفينة.

* * *

فصلت

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾

بعد أن أفصح القرآن عن مآلات الآخرة، وعرف مشاهدها، وصور مراحلها، وروى محاورات أهلها، لم يبق للهالك تبرير، ولا للخسارة عذر يعتد به.

القول قول الكافرين، وإقرارهم بالريبية ليس إلا تملقاً لساحة القداسة، بعد أن تقطعت بهم الأسباب وضاعت بهم السبل؛ وفي كلامهم دعاء إلى الحضرة، باستحضار من أضلوهم، رجاء أن يجعلوهم تحت أقدامهم، تفرغاً لما يعتمل في نفوسهم من مشاعر صعبة.

قد يكون الدوس بالأقدام كناية عن براءة التابع من المتبوع، أو عن إرادة الاقتصاص الحقيقي ورد الصاع بصاع مثله؛ وأنى للحنق من نفع، أو للثأر من جدوى، أو للغیظ من طائل؟ وقد أمروا من قبل بدوس قواد الضلالة، وكلفوا بوطء دعاة الغواية، فما فعلوا، ولات ساعة مندم، ولات حين مناص!

الشورى

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾

اعلم -رزقك الله من فضله- أن الرزق غير مطرد، فقد يكون واسعاً حيناً، وضيقاً حيناً آخر. واعلم أن الرزق لم ييسط كل البسط إلا إنصافاً من خير، ولم يقبض كل القبض إلا رفقاً من بصير؛ فلو كان الرزق شيئاً واحداً يوزع على كل مرزوق دون منهاج للقسمة، أو نظام للتوزيع، أو مراعاة لما يطيقه كل فرد، لكان ذلك وضعاً للشيء في غير موضعه؛ وإنما مقتضى علمه بالحاجة، والقدرة على سوقها، الحكمة في وضع المقادير في مواضعها؛ وتلك -لعمري- شؤون الذات المتصفة بالكمال.

واعلم أن المراد بالعباد قد يراد به خصوص الإنسان، وقد يراد به ما هو أعم منه، وإنما استعمل هذا اللفظ إيذاناً بعموم العناية، وإشعاراً بإحكام التدبير.

ثم اعلم أن الإنسان بطبعه مؤهل للاختيال مائل إلى التناول، وأحواله في الدنيا أوضح برهان؛ فلو استوى الكل في الرزق لفسدت الأرض، وانقطعت أسباب التعاون، ولما احتاج أحد إلى أحد، ولولا هذا التفاوت الموزون لانتهدت صيرورة الحضارات وتوقفت سيرورتها، وهذا هو موجب الجزاء المترتب على الشرط.

وبعد، فإن في الآية مسائل متعددة: أولها أن التنزيل واقع موقع المجاز لا الحقيقة؛ وثانيها أن الرزق موقوف على المشيئة؛ وثالثها أن الإرادة الإلهية منزهة عن إرادة المفسدة من حيث الأصالة القانونية، ولذا منع المكلفين من وجدان ما يؤدي إليها.

* * *

الزخرف

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾

استعصى تفسيرها على طائفة من المفسرين، فتراوحت أقوالهم بين تأويلات مرجوحة وتوجيهات مستغربة، وما حملهم على ذلك إلا الرغبة في صيانة التوحيد، لما قد توهمه القراءة غير المتأنية من تعدد الآلهة، بداهة أن المتشابه يرد إلى المحكم، لأنه أقوى منه، يهيمن عليه ويقهره. ومعلوم أن الآيات المحكمات هي آيات التوحيد، التي تنفي التثليث، وتبأى الحلول أو الاتحاد، ولا تعرف وحدة الوجود؛ ثم إن العطف الثاني خال من ضمير منفصل يعقبه، ومفاد الوصل هو بيان صفة الألوهية في الأرض والسماء على السواء، فلا تعقيد في الآية ولا لبس. الصحيح - والله أعلم - أن الألوهية في الآية راجعة إلى المعرفة لا إلى ذات المعبود، وأن التعدد إنما هو في صورة الاعتقاد؛ ففي السماء يوحد أهلها أسماء وصفاته توحيداً يليق بكمال المعرفة التي خصوا بها، وفي الأرض يوحد أهلها على قدر استدلالهم وما حصلوه من المعرفة به، معرفة قد تعثرها النقص، أو يخالطها الظن، أو يشوبها الخلط؛ وعلى هذا، فإن الله في السماء إله منزّه بعلم ثبوتي محقق، وفي الأرض إله منزّه بعلم إثباتي متفاوت.

* * *

الدخان

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾

التقوى استجماع النفس قواها مراغمة هواها؛ ولا تكون للموصوف صفة متلبسة حتى تغدو ملكة مندكة، كأنها جوهر فيه لا عرض.

الآية مسوقة للإنباء عما ذخر للمنعوتين بها، إبانة عن جلالة موطنهم الأخير الذي لا يعتريه صخب ولا نصب؛ والدنيا لا تداني الآخرة في هذه الخصيصة البتة، إذ الخلق فيها يتقلبون بين مرض وكمد، وإنما يطيب المقام إذا اطمأن المقيم واستقر؛ فكان في كلمة «مقام» إشعار بطول المدة بعد انقضاء آماد الدنيا القصيرة، وإيذان بعظيم المكث.

ولعلك ترى ما نراه من إكثار القرآن في الإخبار عن الآخرة، وما ذاك إلا تقريراً لجدية الخبر، وحثاً على استحضار الموعد والتحضير له؛ وإنك لو تدبرته للاحظت أن من عادته الجمع بين المتقابلات، فهو كلما تناول الدنيا عطف بالآخرة، وكلما وصف عذاب النار أردفه بنعيم الجنة، ليحقق بذلك توازناً بديعاً بين الوعد والوعيد.

الجاتية

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

تصوير لمشهد أجواؤه مقلقة، إذ الأمم يومئذ جماهير غفيرة، قد ازدحمت في محشر مهيب، جاتية من هوله على الركب تسليمًا، باركة مطأطئة، لا تقدر على القيام، تترقب ما سيؤول إليه أمرها؛ هذه الغمرة ستصيب السعداء في الآخرة مرة، والأشقياء مرتين.

تخبرنا الآية بأن لكل أمة كتابًا يخصها، و«كتابها» من الألفاظ المشتركة، يراد به المنزل أحيانًا، وفي أخرى سجل أعمال العباد؛ والمعنى القريب في الآية المنظورة هو الأول تبادرًا، ولاتساقه مع مفهوم «أمة»، غير أن الأقرب هو الثاني، لقيام قرينة مانعة من إرادة الأول، ومعينة على الثاني ومساعدة عليه، وهي اشتغال الآية على «تجزون»، المفصح عن إثبات العمل المرقوم.

* * *

الأحقاف

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

الآية صريحة في الدلالة على مطلوبة الاستقامة؛ والاستقامة استواء على الطريقة وثبات على الشعار، وهي حالة تستتبع لوازم، تبدأ بإقرار اللسان بالربوبية المنحصرة في الله، فتصديق الجنان لهذا الإقرار، ثم انقياد الجوارح إلى ما يقتضيه من أعمال؛ فمن استقام على الإيمان قولاً، وصدقه عملاً، أمن مما يخاف، ومن نكص، خيف عليه.

وهي، مع كونها مطلوبة، لا تنال دفعة واحدة، ولذا تبدو الآية مشعرة بجواز التواني، دالة عليه بحرف التراخي الرتبي «ثم»، ذلك أن مرحلة العمل أشق، كما تعلم.

وأما جواب الشرط فمساقه يقتضي الإطلاق، ويستغرق نفي الخوف والحزن في الدارين جميعاً، غير أن هذا الإطلاق قد يرام تقييده بما جاء في «فصلت»^(١)؛ فإن صح التقييد وتم وجهه، كان النفي منصرفاً إلى لحظة الوفاة، فيكون الجواب عندئذ جواب تبشير للمؤمن عند انقباض روحه.

(١) أي الآية التي تضمنت تبشير المؤمن عند حضور الملائكة له بألا يخاف ولا يحزن، وهو ما يستأنس به في قصر النفي على حال الوفاة.

إن للإيمان شروطاً، تعم مقام النبوة تماماً كما تعم المؤمنين بها، من بينها الثبات على الاستقامة مهما كانت الغمرات، بلا ميل ولا تبديل؛ وإلا، فكم ممن تسمى بالإسلام يردد كلمات التوحيد، يحتاج بها ويخاصم، يبني الأدلة عليها ويدمغ بها غيره، يجب أن يرى مثله فينا، بيد أنه ليس بمستقيم على الطريقة، ولا بمعتدل على الجادة، رخو هش، أو منافق شيمته الازدواج!

* * *

محمد

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾

من المحكمات، وقد جانب الصواب من جعلها منسوخة، كما بعد عنه من جعلها ناسخة. الأمر فيها موجه إلى عموم المجاهدين بألا يكون فيهم إلا الشدة والغلظة على الكافرين، كلما لا قوهم في ساحة نزال أو قابلوهم في ميدان وغى. جواب الشرط الأول مقيد بحدوث اللقاء، وحرف الغاية «حتى» يؤذن بدخول شرط ثان، وجوابه قيد للأول، إذ يشترط اقتران الضرب بإلحاق الهزيمة الساحقة، فإذا تحقق الشرطان معاً، زال موجب القتال، وانتقل الأمر إلى الأسر. ليس للمحارب، ما دامت الحرب قائمة مستعرة، أن يتارك العدو، ولو قدر له أن يلقي سلاحه وعتاده، بل الحكم فيه أن تقطع يده ورجلاه من خلاف، وأن يترك متشحطاً بدمائه، إلا أن يكون الإسلام له عاصماً؛ هذا في أحكام ما لم تضع الحرب أثقالها، أي في ماجرياتها.

في الآية مسائل: أما الكافر، فهو من استقر في قلبه عدم الإيمان بالله ربًّا أو إلهًا، أو بالرسالة المختومة بمحمد، وظهر ذلك في منطوقه أو بان في سلوكه.

وأما الضرب، فكناية عن القتل التام، بكل طريقة تفضي إلى إعدام العدو، واستئصال أثره، وقطع دابره، دون حرمة ولا كرامة.

وأما جزاء القتل، فموجبه الحراية لا الكفر وحده، غير أن استحقاتهم الغلظة فيه إنما كان بسببه، صيانة للأرض وتطهيرًا لها منهم.

وأما الإثخان، فهو ما يؤدي إلى إعجاز العدو وشل حركته نتيجة كثرة القتل في صفوفه، فإذا تحقق، تحققت غاية الشرط.

وأما شد الوثاق فهو الأسر بعد التمكن والمنعة، وقد حصرت الآية حكم الأسرى في أمرين يفهم منهما التخيير لا الترتيب، وهما: إطلاق السراح أو المفادة.

وكما ترى، فإن الآية شديدة لهجتها، حازم بيانها، عسكري طابعها، وفيها القانون الذي ينبغي أن يسري على أتباع نبي الملحمة في مصارعة جبهة الكفر.

ثم تذكر الآية أن الله، لو شاء، لأهلك الكفار من غير أن يكلف المؤمنين قتالهم.

* * *

الفتح

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

تسجيل لمشهد مهيب؛ بيعة أصحاب رسول الله الثالثة لرسولهم وصاحبهم، وقد كانوا يومها خير أهل الأرض جميعاً، إذ آمنوا به حين كفر به غيرهم، وعزروه يوم امتنهنه سواهم، وحملوا وحيه لما تنكر له عداهم، وبلغوا رسالته بأموال بذلوها وأنفس خاطروا بها للذي خلقها. البيعة عقد متين وميثاق راسخ؛ وقد شدد الله في توكيد البيعة المزبورة حين جعلها عهداً أبدياً لا ينقضي بوفاة الرسول، ولا تنسخ بموته، ولا تنقطع بغيابه، لأنها انعقدت على بذل الطاعة لمن لا يموت، وهو الله.

وهذا هو معنى الاستعارة: اعتلاء اليد المتخيلة لله فوق أيدي المبايعين؛ وتكثر في كتاب الله مثل هذه الاستعارات، نظير إسناد رماية الرسول إلى الله، وجعل طاعة الرسول عين طاعته. كأن حس الآية أقرب إلى التحذير منه إلى الإخبار؛ فهي -بقدر ما فيها من تعظيم للرضوانيين وتشريف لهم- تحمل في طياتها زجراً لمن توهم أن دينه في مأمن بعد البيعة، على أن الأصل فيهم الوفاء وعدم النكث، إلا إذا قام الدليل على خلافه.

وأما قوله: «عليه»، فقد أعضل علي توجيه ضم الهاء مع ما استقر من كسرها، واستبهم علي وجه قراءة حفص للكلمة المبنية على الكسر بالضم؛ وقد وقفت على وجوه كثيرة لم أطمئن إليها، غير أن هذا التفرد دليل جلي على حفظ كتاب الله من التعديل والتبديل، وبرهان واضح على وصوله إلينا قرنًا بعد قرن، حرفًا حرفًا، وحركة حركته.

وفي الختام، يعد الله الذين استقاموا ولم يبدلوا بأجر عظيم لم يذكره.

* * *

الحجرات

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

مدار البحث على الأخبار الظنية التي يرجى منها التنجيز والتعذير، سواء أكان الخبر خبراً واحداً، أو مروياً عن واحد، أو آحاد؛ والعدول عن التسمية بإحدى تلك العناوين إنما هو لتفادي الجمود على العنوان، وللخروج من أسر الاصطلاح.

وليس يصح عنوانة المسألة بالسنة، لأن جماعة الأصوليين لا يبحثون في حجية السنة بما هي هي، بل بما هي أخبار يحتمل صدورها؛ ذلك أن الرواة الأوائل استقوا الأحكام وتلقوا الشرائع بلا وساطة وسيط؛ أما نحن، فلم نسمع أقواله، ولم نر أفعاله، ولم نلاحظ تقريراته، إنما حدثنا ما ممن شهدوا ما لم نشهد، فهل ما حدثناه ورويناه حجة منجزة ومعدرة، لا سيما أن الأخبار معظمها ظنية، يحتمل فيها التواطؤ على الكذب؟

وعلى هذا، فإن السنة لما فاتتنا مباشرة، وتعذر إدراكها من جهة الأصل، تعين النظر في وسائل نقلها؛ ومن هنا، يبحث في حجية الخبر الظني الناقل لها، على أمل أن يفضي إثباتها إلى باب علم

مفتوح، وأن يؤمن أحكامًا كثيرة نعلم -على وجه الإجمال- أن الشارع يطلبها منا، ذلك أن الأخبار التي يمكن القطع بها قليلة على نحو يخشى معه انسداد باب العلم والعلمي.

في الاستدلال بالعقل والإجماع والسيرة العقلائية لإثبات المطلوب أو نفيه نظر شديد؛ أما العقل، فليس لاستحالة التعبد بالظن في نفسه، بل لردع الشارع عنه، وليس هذا الردع ناشئًا من قبحه العقلي، وإنما لأن الشارع لا يرى جواز التعبد به، لما يراه من مصالح ومفاسد.

وعلى هذا البنيان، فإن إمضاء الشارع للأخذ به في مواطن معينة لا يعد إمضاء منه للقيح، ومن ثم لا يصح أن يقال: لو كان الظن قبيحًا لوجب أن يجري وصف القبح على جميع أفرادها.

وأما الإجماع، فلو سلمنا بصحة الإجماعات المذكورة في الدعويين، فإن واحدًا منها لا يصلح لإثبات المطلوب ولا لنفيه، ذلك أن الاستدلال بها يكون استدلالًا بأخس أفرادها؛ ثم إن من نقلها إلينا إنما نقلها في وقت قد يكون فيه باب العلم مفتوحًا، وأنت خير بأن انسدادها في زماننا أقرب، وأنت بصير بأن إجماعين متضادين في مسألة واحدة يستلزم الجزم بعدم مطابقة أحدهما للواقع، إذًا لا تعويل.

وأما السيرة العقلائية، فقد استدلووا بها على أن الناس، في جلبهم للمنافع ودفعهم للمضار، إنما على الخبر الظني يعتمدون؛ والحق أن الشريعة لم تمض سيرتهم في التعاطي مع أخبارها، إذ «إن الظن لا يغني من الحق شيئًا»^(١).

ثم إن الخبر الظني لو كان مفيدًا للعلم لما اختلف فيه العقلاء، بدهاة أن الحجية الأصولية إنما تتعلق بالخبر الذي تترتب عليه أحكام على ذم المكلفين، فيستحقون على الترك العقوبة، وعلى

(١) آية من سورة «يونس».

الفعل المثوبة، وليست إنباءات السيرة العقلانية العامة تنجز شيئاً تنجيئاً شرعياً، فكيف يصح أن يقال: أأست ترى أن العقلاء يعطون اعتباراً لما يصلهم من أخبار ظنية ويرتبون عليها عملاً؟ وبعد، فلا يصح الاستدلال إلا بالأخبار القطعية، سواء في إثبات المطلوب أو نفيه، ودونه خرق القتاد وشت الرماد، إذ يقوم على استدلال دائري غير مقبول.

إلى جانب ما سبق، سلك المشتون مسلكاً آخر في إثبات دعواهم، وهو مسلك لم يظهر لي معناه، إذ رأوا أن مجرد إثبات صدور كتب حديثية معتبرة يغني عن البحث في حجية ذلك الخبر؛ بينما ذهب غيرهم إلى إثبات صحة الصدور اعتماداً على مضامينها؛ وأنت تعلم أنه لا تلازم بين الأمرين، بل كيف يصح الانتقال من الصغرى إلى الكبرى؟

ثم إن الأدلة في إثبات المطلوب أو نفيه لا بد أن تنتهي إلى كبرى كلية تفيد جواز العمل بالظن تبعداً؛ والمعلوم أن الشارع قد سلبه الاعتبار، فأى حاجة إلى بذل مزيد من المؤونة في سبيل إثباته؟ وإنا، إذ علمنا إطلاق الشارع في نزع الاعتبار عن الظن مطلقاً، فقد علمنا معه استثناءه صوراً معينة؛ ألا ترى أنه جعل اعتباراً شرعياً لبعض الظنون التي لا تبلغ درجة العلم، ولا تورثه، ولا

تثمر بصيرة أو رؤية، على نحو ما هو جار في البيئات والوكالات، وكثير من مسائل النكاح؟ ثم ألا ترى أن الشارع قد أمر بخروج أفراد من كل طائفة للتفقه في الدين، وأرسل اثنين إلى أصحاب القرية، ثم عززهما بثالث بعد تكذيبهما، وانتدب رسلاً يحملون كتبه إلى هرقل وكسرى والمقوقس والنجاشي وابن ساوى، ليلبغوا دعوته؟ وهم -على انفرادهم- آحاد، وقد أوجب الشارع بمجيئهم قبول خبرهم.

وعلى هذا البناء، لا ينجو الخبر الظني من أحد احتمالين لا ثالث لهما: إما أن يكون داخلياً في الإطلاقات الزاجرة عن العمل بالظن، أو أن يكون مستثنى منها بحجة ناهضة.

وعجيب أمر من يخشى الانزلاق إلى انسداد باب العلم والعلمي، فيبني على كثرة إصابة الظن للواقع دليلاً على حجته؛ وهذا عن الإنصاف بعيد، فالقياس لا يختلف ولا يتخلف عادة، ومع ذلك لم يمضه الشارع، وكيف إذا ما أصابت غالب أحلام امرئ الواقع، أيتخذها حجة في دينه ودنياه؟ ومثل ذلك الكف والفنجان!

وأعجب من ذلك استبعاد إمكان القطع، وحصر الوصول إلى المعارف الدينية في دائرة الظن، بزعم أن القطع لا يتأتى للإنسان بسبب محدودية إدراكه، وأن ما يعتقده قطعياً ليس إلا قطعاً وجدانياً غير منضبط؛ وكما ترى، فرغم اختلاف منشأ القولين، فإن المآل واحد.

لا يتجه الاستدلال بعد هذا إلا إلى الآيات التي تكون نصاً في معناها؛ ونحن لا نرى آية من الكتاب ناهضة لإثبات المطلوب، لأن الاستدلال بشيء منه لا يعدو كونه استدلالاً بمفاهيمها أو بلوازمها البعيدة، وهي دلالات لا تخلو من تعدد الاحتمالات، في حين أن دليلنا أصرح وأبين، وقد اعتبرناه العمدة، وفيه الكفاية والغنى.

وإن صح استدعاء أي منها في المقام، فإن مختارنا سيكون حاكماً عليها ومهيماً في تأصيل منهج شرعي يتعامل مع الأخبار الظنية ووسائط نقلها بلا موارد؛ وأعني بالحاكمة أحقية الآية المنظورة في التقدم على سائر الآيات.

إن التحذير من قبول خبر الفاسق وحده يفتح مجاًلاً لمن يسعى إلى إثبات حجية خبر العادل الظني، إذ إن الفاسق في الأدب القرآني يقابله العادل، فإذا تحقق وصف الفسق خارجاً في المخبر وجب التبين، وإلا فلا يجب، لأن الأمر معلق على تحقق الأول دون الثاني.

نعم، يتم هذا استدلالاً على تقدير القول بحجية مفهوم الصفة، غير أن مذهبنا خلافه، إذ لا نرى حجية تعبدية في مثل تلك الدلالات؛ كما أن الجزاء في الآية ليس علة منحصرة حتى ينعقد المفهوم، فإذا لم يكن، كان غيره، وهذا إشكال مبنائي.

أما الاستدلال بمفهوم الشرط، فيقوم على افتراض التلازم بين انتفاء وجود المخبر الفاسق، ووجوب الثبوت من الأخبار الواردة، استناداً إلى أن الحكم معلق على تحقق الشرط، غير أن هذا محل نظر وموضع إشكال إذا تأملت، إذ قد ينفك الجزء عن الشرط.

الحق والإنصاف أن الآية، لو عرضت على عامة الناس ممن صفت أذهانهم مما في المظان من إشكالات واحتمالات، لانصرف فهمهم ابتداء إلى هذا المعنى، غير أن التعويل عليه لا يستقيم، لأن الآية إنما سقت لبيان وجوب التبين عند قيام وصف الفسق، دون أن تقتضي انتفاء الوجوب عند انتفائه؛ فالتلازم المفترض بين ثبوت الحكم وانتفائه بتبعية ثبوت الوصف وانتفائه ليس مما ينهض به مقتضى النص، ولا سيما مع القول بسقوط حجية مفهومي الوصف والشرط؛ علاوة على أن الاستناد إلى مفهوم المخالفة لا يتجاوز كونه اعتماداً على الظهور، والظهور لا يعدو أن يكون ظناً في أحسن أحواله.

وإن قلت: إن السيرة العقلائية قائمة على الاعتماد على هذه الظهورات، وقد أمضت الشريعة المقدسة سيرتهم، فكيف -والحال هذه- تفهمون كتاب الله وسنة نبيه، وأنتم ترون الظهورات ظنية، والظني عندكم مطروح؟

قلت: إن للظهورات نطاقاً يقينياً لا يتطرق إليه الشك، كدلالة صيغة الأمر على مطلق الطلب أو الحث، ونطاقاً ثانياً اطمئنانياً يبني عليه العقلاء، ونطاقاً ثالثاً متأرجحاً يقع فيه التردد عند فقدان القرائن بين الوجوب والندب.

وعليه، فإن ما نتحصل عليه -وإن قصرت رتبته عن القطع المنطقي- نسميه علوماً بلا وسوسة؛ وأما مخالفونا، ممن أقاموا دينهم على الظنون، لما رأوا عمل العقلاء بالاطمئنان توهموا أنهم يبنون على الظن، ولما لاحظوا سكوت الشارع، توهموا رضاه على بنائهم؛ وهذا توجيه فاسد، فدقق.

الصواب -والله أعلم- أن علة الحكم منصوص عليها، لا مستشعرة ولا مستظهرة؛ فإذا تبين لك هذا، علمت أن الأمر بالتبين لا يفهم منه سوى نفي حجية ما يتبين منه قبل التثبت منه. وأما ذكر الفاسق في الشرط فليس لغواً ولا تقييداً للحكم، لأن الحكم يدور مع العلة لا مع الوصف، وإنما خص دون العادل تنبيهاً على كونه مظنة أقوى للخطأ.

ولتقريب وجه الاستدلال، أقول: إن الندامة قد تنشأ حتى من خبر العادل إذا ما أصيب بجهالة، وهذا صريح في أن العبرة بعلمية الخبر لا بعدالة المخبر وحدها، فالحجية تتبع الانكشاف لا الشخص وصفته، وعليه ينعقد قوله: «لا تقف ما ليس لك به علم»^(١).

إن الأمر بالتقصي والتحري مطلق، فإذا ثبت الخبر وصح، انعقدت له الحجية، وجرت مقتضياته، ومضت أحكامه، وترتبت آثاره.

ألا ترى كيف أن داوود انقاد إلى خبر ظني، ففضى لصاحب النعجة الواحدة على حساب صاحب التسع والتسعين، ثم أعقب ذلك ندمًا واستغفارًا؟ بينما سليمان لم يقر خبر الهدهد حتى تحقق من صدق ما جاء به من غير جهته؛ فتأمل هذا مليًا وتمعن فيه.

وبعد، فلما نهت الشريعة، بنصوص قطعية عن اتباع الظن إلا في موارد مخصوصة معلومة، صار الأصل عند الشك مغنيًا عن إقامة مزيد من الأدلة؛ وما كانت استدلالنا الأولى إلا تعزيزًا لذلك الأصل، وتثبيتًا لحجيته، وتأكيدًا لمقتضاه.

بعد التحقيق في المسألة والتأني فيها، تبين لنا أن الخبر الظني لا يصلح لتأسيس المعرفة الدينية؛ ولعمر الله، إن المظان أشبع تكلفًا، وإننا لنعيب أشد العيب على أولئك المتكلفين، فما أوهن ما يطلبون إثباته، وما أخس مداركه!

(١) آية من سورة «الإسراء».

ودون الخبر الظني طريق لا يفضي إلى الانسداد؛ ففي القرآن غنى، وفيما تواتر لفظاً من الأخبار، وفي غير المتواتر منها متى أحاطت به قرائن ترفعه إلى مرتبة الاطمئنان بصدوره.

نعم، قد يرتقي الخبر الظني إلى مرتبة القطع إذا احتفت به قرائن قطعية؛ وإنما يصير الخبر الظني حجة متى كان طريقه قريباً، وسنده متصلًا، يرويه محترف، ضابط، معول عليه، قد استجمع أعلى مراتب الوثاقة والعدالة والفقاهة والنباهة، في مصنف معتبر مشهور، يعمل به أصحابنا، عليه يعتمدون، ومنه يفتون؛ ومتى كان متميزًا بمتن سليم، ولحن في الكلام قوي، دال على قائله، موافقًا لكتاب الله وسنة نبيه أو غير معارض لهما.

واعلم أن هذه القرائن لم يضعها الشارع ولم يقررهما، غير أنها إذا اجتمعت في خبر، ثم أفادت باجتماعها العلم أو ما يقاربه من غير ارتياب، ولم يبق للنظر عذر في الإعراض عنه، وجب الأخذ به، وإلا كان الإعراض عنه أوجب.

ومهما تكن تلك القرائن، فإنها لا تكون حجة لمجرد تسميتها قرائن؛ فما لم يجاوز الخبر بها حد الظن، لم يثبت له اعتبار، والتمسك بها يكون ضربًا من التبرير الاصطلاحي.

واعلم أن الخبر لا يقوى، بعد جبره واجتيازه مرتبة الظن، على تخصيص ما في كتاب الله، لأن علمنا بالآيات أقوى منه، ولأن الخبر ذي القرائن قد يحصل العلم به لواحد، ولا يحصل لغيره.

وإضافة إلى ما سبق، فقد حررنا في موضعه استثناء الشارع بعض صور الظن من أصل النهي عن العمل به، وهو الظن الذي جعله معتبرًا بدليل خاص؛ ولما ثبت تأييد الشارع لمرويات جمع معين من الرجال، كانت إخباراتهم معتبرة، غير أن هذا الاعتبار يسقط إذا ابتلي بقطعي.

إذا تقرر هذا، علمت أن تشعيب الأحكام في أبوابها المختلفة عسير، وأن عملية الاستنباط من بعد تكون شاقة ومضنية، حتى لا تكاد تبقى فسحة مريحة للنظر.

ولعل الأبلغ في الحجة، والأبعد عن لزوم التيه، أن يدان الله بسماع مسموعات صدوق يرويها عن صدوق عن الحجة؛ ولعل كثرة الأخبار الواصلة إلينا إنما هي أثر الحث على تحمل الرواية: سماعاً، وقراءة، ومناولة.

وقد يتوهم الضعفاء أن السماع فرد من أفراد الخبر الظني، والحق أن الشارع نزل منه منزلة العلم اعتباراً، وإن بقي احتمال الجعل قائماً.

وبعد تمام أدلتنا، استبان أننا من مدرسة لا تشيد أصول الإسلام على مقالات غير مأمونة، ولا تقييم فروعه على أخبار غير موثوقة.

ق

﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

لا يظلم الله خلقه نقيراً؛ فهو حين أناط بكل ملك وظيفة، وجعل من بينهم اثنين يرافقان العباد، يسجلان أقوالهم وأفعالهم وسكناتهم وحركاتهم، بين لعباده أثر ما يسجلانه عليهم، لئلا يكون لأحد منهم حجة عليه، ولئلا يقول قائل منهم: ما كنت أعلم من هذا الغيب شيئاً. وأما «من» فللتوكيد لا التبعض؛ وقد ذكر القول وأهمّل الفعل للتقدير لدخوله فيه معنى، لأن الأفعال لا تنشأ إلا بعد حديث النفس بها، فالقول هو مقدمة الفعل ومنشؤه وشرطه الضروري. غير أن بعض المفسرين تكلفوا في التفصيل، حتى أفضى بهم ذلك إلى وجوه جد غريبة، من نحو اعتبار ملك اليمين بالخير موكلاً، وملك الشمال بالشر موكلاً، أو القول بأن موضعهما عند الشدقين لا عند الكتفين، أو الزعم بأن «رقيب» اسم لأحدهما و«عتيد» اسم للآخر أو وصف لهما؛ وكلها جهود غير محمودة ولا مشكورة، لأنها قائمة على تحرص وتخيل.

الذاريات

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

هذا بيان وجيز في غاية الأهمية، صادر عن الخالق إلى المخلوقين العاقلين المكلفين من خلقه.

اللام في «ليعبدون» تحتل وجهين من حيث الدلالة:

الأول: الإفصاح عن الحقيقة التكوينية، وهي أن الإنس والجن إنما أخرجوا من العدم إلى الوجود لغرض عبادة المعبود الحق، وأنهم مفلطرون عليها لا ينفكون عنها جبلة، غير أن هذا وجه مدفوع بالواقع، إذ لو صح لكانوا كالملائكة، لا يملكون عن العبادة صارفاً، ولا يجدون عن طاعة المعبود محيداً؛ ثم إن الناس ليسوا جميعاً مكلفين بالعبادة، فثمة من سلبوا أهلية التكليف، كالمجانين ومن في حكمهم؛ وأما حقيقة الخلق التكوينية فمغايرة للادعاء آنف البيان، قد بينتها الآيات في «هود»^(١).

(١) أي الآيات الدالة على أن الناس لا يزالون مختلفين، وأن الاختلاف سنة جارية بينهم، لا أن يكونوا جميعاً على حال واحدة من الاتفاق والائتلاف.

والثاني: الإفصاح عن الوظيفة المطلوبة، أي بيان الإرادة الشرعية التي تعلقت بهم، فإنهم إن امتثلوا لها خرجوا من دائرة التيه والضيايع؛ وهذا الوجه عندي أقرب، لمكان الفعل المضارع، ولخلو السياق من ذكر سائر أجناس المخلوقات.

* * *

الطور

﴿مُتَكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَرَوَّحَاتٍ مَّحُورَةٍ عَيْنٍ﴾

الأصل أن الخطابات القرآنية تشمل الجنسين، إلا إذا دل دليل على تخصيص أحدهما، وإذا كان ثمة نقاش في هذا، فإنه في استعمال صيغ الجموع التي تظهر عليها علامة التذكير، فيبحث: هل تدخل الإناث في تلك الجموع أم لا؟

قولنا هو قول الجمهور، بأن الجمع المذكر يعمهن ويدخلن فيه، ما لم يخرجهن الدليل أو تصرفهن القرينة، طبقاً لقاعدة التغليب على المؤنث في حالة الاختلاط.

ورغم أن الجمع المذكر يستعمل للأخص، إلا أنه يراد به الأعم منه، وذلك لأن إعادة توجيه الكلام مرتين، مرة لجنس وأخرى لآخر، مخالفة للفصاحة والبلاغة، فتأمل.

والظاهر -والله أعلم- أن التزويج في هذا السياق منصرف إلى الذكور المتقين دون الإناث المتقيات، إذ العبرة بلفظ «المتقين» وهو جمع مذكر سالم.

بل والانتكاء أيضاً، إذ لا يليق بنساء أهل الجنة الاضطجاع في مجالس السرور والأنس كما يفعل الرجال، لأن المؤمنة مخدرة حيية؛ وليت شعري، كيف تكون الحور مقصورات في الخيام،

محسوسات مستورات، بينما المؤمنة وهي خير منهن وأعظم مكشوفة مفضوحة؟ ومن ثم، فإن جلاس تلك المجالس هم الذكور دون الإناث.

وعليه، فإن النعيم المزبور مخصوص بالرجال دون النساء؛ فهم الفاكهون، الذين يأكلون ويشربون، يتكثون ويتزوجون.

ذلك إلى قوله: «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان»^(١)؛ ثم يعود الخطاب بعده ليشمل الجنسين؛ وهذا أجود ما يمكن أن تفسر به الآية، فدقق.

وكيف كان، فإن الأصل في الحور العين أنهن كائنات أنثوية، يعشن في النشأة الآخرة، قد أعدهن الله للزواج وحده، وهن أبكار، لم يمسهن أحد من قبل أبدًا، صغيرات غضيضات، فائتات ناهدات، كل واحدة منهن لؤلؤة ومرجانة.

وفي هذا المظان، تبرز إشكالات للمستشرقين رديئة، من قبيل زعمهم أن القرآن خص الرجال بفضائل أخروية لم تشرك النساء فيها، وأنه يستميل النفوس بالمغريات، ويستدرجها بالإثارات. وأعجب من هذا، تأويلات المفسرين مناهروبا من إشكالات النوكي؛ فترى فريقا يرجع معنى التزويج إلى أصله قبل النقل، فقالوا: معناه الاقتران، وليس العرس والنكاح، لمكان الباء، لأن الفعل لو أريد به المناكحة لتعدى إلى مفعولين؛ وآخرون منهم ذهبوا إلى أن للمؤمنات حورا كما للمؤمنين، غير أن الآية، على زعمهم، امتنعت عن التصريح لقبحه!

والحق أن ذلك مدفوع كله، ويكفي أن الله قد وعد المؤمنين والمؤمنات أن لهم ما تشتهي أنفسهم في الجنة، وهو وعد منصف، فافهم.

(١) آية من سورة «الطور».

النجم

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾

سورة مزدانة بإيقاعها السريع في سردها للحقائق، ومنها ما جاء في الآية المنظورة التي تعرف الخلق بمالك نواصيهم، والمتحكم في انفعالاتهم الذاتية، والمتصرف في طبائعهم النفسية. في هذا البيان، لفت نظر إلى أمر خفي يغفل عادة إسناده إلى الحق، لما يتوهم فيه من كونه طبعاً غريزياً مجرداً ينشأ بعد التفاعل مع المؤثرات الخارجية. يكفي الضمير المتصل في حرف التوكيد لإفادة المعنى، غير أن الآية جاءت بضمير آخر منفصل تأكيداً على الحصر، ويعود كلا الضميرين إلى «ربك»؛ أما مفعولا الفعلين فمحذوفان، أقدرهما: أضحك وأبكى خلقه.

من هنا، تدرك تفرد الله في التصرف بمخلوقاته؛ فهو أولاً، وبالذات، من يسلط عليهم مسببات الضحك والبكاء؛ وثانياً، وبالعرض، من يفوض إليهم القدرة عليهما. الدنيا دار تردد بين الضحك والبكاء؛ وأما الآخرة، فالأمر فيها تبعاً للمستقر: فإن كان في الجنة، فتفكه وفرح لا ينقطعان؛ وإن كان في النار، فبكاء واصطراخ لا يزولان.

القمر

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

لقد بث الحق آياته في القرآن على وجوه شتى؛ ثم قرر الإعراض في «القمر» عن تقديم مزيد منها، وانتقل إلى تهديد من لم تغنه نذر الكتاب، وترهيب من لم يعتبر بمواعظه.

الحق، كما ترى، مع هذا التخويف وذاك التهديد، يقسم بأنه يسر هذا القرآن للفهم والتلاوة؛ ثم أودع في كلماته حلاوة، وأضفى على ألفاظه طلاوة.

ثم يكرر قسمه، مؤكداً على تيسيره لمن يقبل عليه بتواضع ويهيئ نفسه للاستجابة له، لأن الإقبال عليه بأبهة وغطرسة لا يثمر شيئاً؛ فكما أنه يهدي الكثيرين، فإنه يضل مثلهم.

وفي هذا السياق، استعصى على البعض تكرار ألفاظ الآيات في السورة، معربين عن وجود إشكالية في فصاحة الكتاب؛ خاصة وأن بعض التكرارات، كما في «الرحمن»، لو جمعت، كان من الممكن أن تشكل بها سورة كاملة الحجم!

قد يقال: لا يثمر التكرار معان جديدة؛ لكننا نجيب: ما تكرر تقرر وترسخ وتأصل؛ فالكتاب كتاب هداية بأساليب خطابية؛ كما أن التكرار يقتصر على الألفاظ، لا على معانيها.

الرحمن

﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾

إنه تعالى، لما وصف سوء حال أهل النار في النار، قصد توبيخ الأشقياء على تمسكهم بتكذيب المصير المريع الذي ينتظرهم؛ وإنه حين حدث أهل الجنة بما أعد لهم في الجنة، أراد تشويق السعداء إلى ما ينتظرهم من مأوى كريم ونعيم مقيم.

هذا وعد من الله بأن يورث من خاف حسابه ولقائه جنتين من لدنه؛ وهنا خمس مسائل: أولها: بين الخوف والحشية عموم وخصوص؛ أما العموم ففي اشتراكهما في توقع حصول مكروه ممن يخاف منه؛ وأما الخصوص، ففي تعظيم الذات المخوفة، أولاً وبالذات، وبتعظيم الجزاء والثواب، ثانياً وبالعرض.

ثانيها: لفظ «مقام» لا يجوز فهمه على حقيقته، فهو يدل على شأن الرب وليس اسماً لموضع قيامه، ودليلنا على ذلك أن اللفظ مشكك، وكذلك عدم صحة الحمل وصحة السلب.

ثالثها: من الأليق تعليق الخوف على مقام الربوبية، لأن الخوف ناظر إلى الثواب والعقاب، والربوبية هي المعنية بهما.

رابعها: الجنة لفظ نقلته الشريعة، وجعلته اسمًا لدار السعادة الآخروية؛ وأما التثنية فتدل على أن الثانية جنة مع الأولى وليست فيها، إذ لا توجد في السياق قرينة تصرف هذا الظهور، إلا إذا اعتبرنا تنكير التثنية دليلًا على أن المراد جنة أخرى غير التي عرضها السماوات والأرض، وإنما جنة من جنان داخلها.

خامسها: من عدل الله أن جعل للكافر نارًا واحدة، وللمؤمن جنتين؛ ولا مفهوم مخالفة للآية، فلا يقال إن للمؤمن غير الخائف جنة، وللخائف جنتين، إذ إن الخوف من الله عبادة مطلوبة، ولا يكتمل إيمان المؤمن إلا بخوف ورجاء.

* * *

الواقعة

﴿وَكَاُنُوا يَقُولُونَ اِنَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا اِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾

يرجع الفعل الماضي الناسخ إلى أهل الشمال؛ فالكلام قولهم، والاستفهام تعجبهم، والسؤال برهانهم، والمطارحة هي غاية ما بلغه منطيقهم.

ولقد سبق أن فصلنا في «يس» تهافت مغالطة منطقية معوجة مثل هذه: «أنطعم من لو يشاء الله أطعمه»^(١)، و«ما أنتم إلا بشر مثلنا»^(٢)؛ وها هم يكررون التهافت ذاته بإنكار البعث في قولهم: «أنا لمبعوثون * أوأباؤنا الأولون»^(٣)؟

الأسئلة، كما ترى، يراد بها نقض عقيدة البعث، ولكنها لا ترقى إلى النقض لخلل في مقدماتها العلمية؛ ولقد ذهب القرآن مذهبهم في المطارحة، فطرح عليهم في «الواقعة» أسئلة كما كانوا يطرحون: أنتم أم نحن^(٤)؟

(١) آية من سورة «يس».

(٢) آية من سورة «يس».

(٣) آية من سورة «الواقعة».

(٤) وهي الآيات التي انتظمت في سورة «الواقعة» ضمن نسق من الاستفهامات المتعاقبة.

ليس من منطق الدهريين أن نموت ثم نصير عظاماً رميماً تذرى كما يذرى الهشيم في العراء، ثم نرجع كما كنا لحماً ودمًا؛ هذا عندهم رجع بعيد! ودليلهم على الاستحالة: آباؤنا جميعاً، هل فاق ميت منهم من موته؟ وبرهانهم على الامتناع: الاستصحاب عند الشك! وهم حسبوه يقيناً؛ فلا انفكاك بين القدرة على الخلق من العدم والقدرة على الإحياء بعد الإماتة.

* * *

الحديد

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

اعلم أن الضمير يعود إلى الذات المقدسة في سياق جملة استثنائية؛ واعلم أنك إن تأملت في القرآن، وجدت دوام تقدم الضمير «هو» على اسم الجلالة؛ ثم اعلم أن لله أسماء حسنى على نحو الحقيقة والأصالة، ولغيره على نحو المجاز والتبع، ومنها الأربعة المذكورة في الآية المنظورة. إطلاق الأسماء يفيد انحصارها في الذات المقدسة، وجمع الاسم ونقيضه يفيد اجتماعها فيها وحدها، ولا تجتمع الأضداد في غيرها، فهي ظاهرة متجلية في الأمارات الدالة عليها، وهي، مع تجليها، خفية لا تدركها الحواس، وهذه هي الإحاطة.

الاسمان الأولان، وإن كانا يشعران بترتيب ضمن نطاق الموجودات، غير أن الزمان لا يلفت إليه؛ بدهاة أن الخالق كان بلا ابتداء وسيبقى بلا انتهاء، وضرورة أن الأزلية والأبدية عين ذاته، بخلاف خلود أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فإن أبديتهم، عرض مضاف إليهم، قائم بإبقاء غيري.

المجادلة

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

ما ينبغي للمؤمنين، وقد شرفهم الله فجعلهم من حزبه، أن يكونوا المودة لأحد من أفراد حزب الشيطان، كائناً الفرد من كان، ولو كان من أصحاب الفروض؛ ذلك لكي يكون الانحياز لله كله، وليتوافق المظهر مع المخبر، فيقوم للدين عمود، ويخضر للإيمان عود.

بهذا الفاروق الصارم يميز الله الخبيث من الطيب، ويطهر صفوف حزبه من الأعداء، ويطيح بوشيج النفاق، إذ جعل من يفترض منهم الإيمان في مواجهة أحبائهم ممن شاقوا الله ورسوله. ومقصد هذا الاختبار أن يمتحن صبرهم على مضض مجافة أنسابهم الأقربين، ووجع خصومة أودائهم الأبعدين، وليظهروا جدتهم في جهاد كل عدو؛ وهكذا فعل إبراهيم، إذ تبرأ من أبيه لما تبين له أنه عدو، معيراً الله قلبه، ذلك أن الناس بعد الدين حزبان: حزب للشيطان، وحزب لله، فمن كان تحت لواء أبي مرة، وجبت مناوأته، وحققت مناوشته، كائناً الفرد من كان.

* * *

الحشر

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

الكلام في سنة محمد بن عبد الله، خاتم النبيين وسيد المرسلين، وأقول فيها: إنها مذهبه، والحجة منها ما كان مسنداً إلى الوحي؛ وكان طريقة منه ملتفة، لا عادية، ولا معجزة، ولا واجبة عليه وحده، أجراها في أمته بالمواظبة؛ وكان خطاباً منه موجهاً، بلا تلاوة ولا قرآن. ولقد سار فقهاء الإسلام على اصطلاح أبي عبد الله الشافعي دهرًا بعد دهر، يفتشون في الأدلة وينقبون في البراهين لتثبيت مذهبه، مع توسيع وتبديل، وقد رأيت ألا أتبعهم في ذلك، واخترت إمامة الدليل، وأنت ستشهد الفرق بين إيمان يعقبه استدلال، واستدلال يفضي إلى إيمان. ولقد احترزت في الصيغة المختارة بالقدر المتيقن الضروري للديانة، ولتقريب المختار أقول: إن سنة المرء مذهبه وطبيعته، وحجية أي سنة تحتاج إلى جعل من الشارع إلا إذا كانت معصومة، ونريد بالحجية ما يوجب تعبدًا.

وبما أن الأفعال بكاء لا منطوق لها، فهي أضعف من الأقوال، إذ قد تكون مقتصرة على واقعة لا يراد لها التعميم، أو قد تكون مفروضة عليه وحده، مثل فرض التهجد الذي دأب عليه. وبما أنه يتفوه بكلام عادي واجتهادي وقرآني، فإن سنته القولية تتحدد فيما خرج عن تلك الأشكال، أي فيما قصد به إنشاء خطاب موجه.

أما العادي، فهو جبلي وعرفي الطابع، لا حجية له؛ وأما الاجتهادي، فخاص به وحده؛ وأما القرآني، فحجتيته من نفس القرآن؛ وأما غير العادي، فهو ما ينسبه إلى الله دون أن يكون في كتاب الله، إلا أنه حجة باعتباره من الوحي الذي لم يرد في القرآن المروي، كما ثبت له في «التحريم»^(١). وبعد، فقد أحصيت الآيات فوجدتها مقسمة إلى طوائف وذات دلالات، تفيد مجتمعة التحريض على الاستجابة لدعائه، والائتمار لأمره، والامتناع عن معصيته، مع إحالة كلمة الفصل إليه عند التنازع، لأنه لا يأتي بأي شيء من عند نفسه.

وأنت، كما ترى، الجامع بين دلالات الآيات هو الإجماع على طاعته بصفته وليًا وحاكمًا، والإلزام بالتصديق بكل ما يؤدبه عن الرسالة، سواء كان المؤدى في الكتاب أم لم يكن؛ وهذا القدر من الحجية متيقن، غير أن المطلوب هو الزيادة عليه لتشمل السنة المحمدية بكل وجوهها: النبوية والرسولية.

ولتأسيس ذلك، فإن آية من الكتاب لا تصلح لإثباته على هذا النحو، كما أن الاستدلال بما يروى من الأخبار ويحكى يستلزم منه دورًا، إلا إذا أمكن إثبات أنه قد أخبر عن الله بوجوب الأخذ

(١) أي ما ورد فيها من إخبار الله نبيه بما أفشته إحدى زوجاته من الحديث الذي كان قد أسره إليها، وهو إخبار إلهي خارج القرآن المتلو.

بسنته على الإطلاق، النبوية والرسولية؛ فإنه لما ثبتت ولاية الرسول في التشريع، جاز له بوصفه وليًا، أن يأمر بالأخذ بسنتيه.

وإن ادعي هذا؛ قلت: إنني بعد التحقيق، بنيت رأيي على عدم حجية الخبر الظني الناقل لها، وذهبت إلى أنه غير كاف في الكشف عن واقعها إثباتًا.

لا يبقى في المقام إلا الاستدلال بقطعي يروى عنه، يتضمن أمرًا تشريعيًا باتباع سنته على الإطلاق، شريطة أن يكون نصًا في معناه أو ظاهرًا فيه، مع قدر متيقن يثبت دلالة المطلوب.

ولقد طالعت الأدلة، فالفيتها لا تثبت إلا ما أثبته القدر المتيقن سالف البيان؛ ومع ذلك، فإن الطريق لا يزال معبدًا لإثبات ما هو أزيد منه، وينحصر في واحد.

إذا ثبت قهر الله له على الامتناع عن الغلط في الدين والتلبس بالقبيح، فإن حجية سنته كلها منذ البعثة تثبت بداهة، لا لخصوصية فيها، بل لعصمتها، ومن ثم يكون بذلك برهان العصمة هو كبرى المسألة الكلية، لملازمة بينهما.

ومع ذلك، فإنه لا تلازم للعكس، لأنك ترى أن الشارع قد أوجب على المرأة الاستسلام لزوجها في غدوها ورواحها، وألزم العبد طاعة مولاه ما لم يأمره بمعصية، وفرض على الجيش الإذعان لأمره في اجتهاده ونظره، دون أن نفهم من ذلك وجود ملازمة بين الطاعة وعصمة المطاع.

وقد قيل: إن نفي العصمة يعني إمكانية غش النبي في إبلاغ الرسالة، واحتمال افتراءه أحكامًا من لدنه؛ وجوابه أن فرض هذا الإمكان يبقى قائمًا حتى بعد القول بعصمته، إذ لا قائل بأن المعصوم مضطر إلى هذا اللطف أو تلك الملكة إلا في إبلاغ الرسالة؛ وإذا أدركت هذا، أدركت أن نفي العصمة لا يلزم منه فعل القبيح ضرورة.

والذي يقتضيه النظر الصحيح، بعد التحقيق، أن النبي مجبور على العصمة في التبليغ، منزّه عن اجتراح الكبير؛ أما قيد الإجبار، فدليله القرآن، والاعتقاد به في حد الضرورة القطعية؛ وأما

التنزيه، فإن الكتاب خال من هذه الدعوى، ولو استشعاراً، لكن العقل يحكم به من جهة برهان نقض الغرض لصيانة النبوة من الإبطال.

ولقد جرى انعقاد سيرة أصحاب النبي على التعاطي مع طريقته تعاطي الأخذ من الكاشف عن الواقع، بل وقد أحيوا مذهبه، واهتموا بحديثه، وتبركوا بطريقته.

هذه القرائن جميعها معتد بها، وتدفع للاطمئنان بصحة إعطاء مزيد حجية على المقدار المتيقن، ليكون عموم العادي من طريقته وخطابه حجة بجانب غير العادي إذا كان ملتفتاً.

إذا كنت قد فهمت هذا، فاعلم أن الاكتفاء بالقرآن محذور، وأن العمل به وحده متعذر؛ أما الحظر، فلتصريح آياته بوجوب الأخذ بأوامر الرسول ونواهيه؛ وأما التعذر، فلأنه يؤدي إلى تلاشي نظام التكليف، فلسنا نعرف تفاصيل الصلاة ولا دقائق مناسك الحج، وهكذا دواليك.

وإذا قيل: إن القرآن محفوظ دونها؛ قلت: إنما الكلام في حجية السنة الواقعية، لا المنقولة؛ وإذا قيل: لم يفرط الله في الكتاب من شيء؛ قلت: ليس ذلك دليلاً على انحصار المرجعية فيه.

هذا نهاية ما يمكن أن يوجه به الكلام في السنة، غير أن فرقاً من المسلمين سعت إلى رفع اختصاص السنة بحضرة نبينا، فألحقت فرقة أصحابه فيها، وأخرى أدخلت أهل البيت.

أما دعوى الفريق الأول، فليس عليها دليل من كتاب ولا سنة، وما علمنا من أصحابه ادعاء بأن لهم سنة متبعة، ولا عرفناهم معصومين، فأيهم المذهب؟ وأما دعوى الثاني، ففيها تفصيل لسنا في مقام بيانه.

المتحنة

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

هذا إرشاد من الله إلى أهل الإسلام، أن لهم في مراغمة الإمام إبراهيم لأعداء الله أسوة حسنة، إذ وقف متحدياً ومعانداً، تصحبه زمرة قليلة اهتدت بهديه، يتبرؤون علانية، والملا من أمامهم، من أقدس المقدسات الباطلة، بأشد العبارات وأقصى الكلمات.

انقضى عهد السكوت عن الكفر، وآن وقت المكاشفة وترك التحرج والتقية، ومن هنا كانت غضبة الإمام ومن معه بلا رعاية ولا عناية، ولا مصانعة أو مداهنة أو مضارعة. لقد كانت مخاطرة بالنفس للذي برأها: إنا براء منكم! كفرنا بكم! قد بدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً!

إن هذا لعزم عجيب بإحداث شرخ اجتماعي لا يسده شيء، وتعمد مدهش بتأييد الفتنة إن لم يحدث القوم إيماناً.

وهكذا عهدنا كل الأنبياء: يأتون والناس أمة واحدة، فيحدثون اختلافًا واحترابًا.
لقد اختار الله لجماعة المسلمين اتباع سنة إبراهيم الخشنة، كلما أخفق التوسل بأساليب النهي عن
المنكر اللينة، دون أن ينتقص هذا الاختيار من مكانة سنة صاحبهم الخاتم.
وفي ذات السياق، نهى عن التأسى باستغفار إبراهيم لأبيه الكافر، بيد أن استغفاره لم يكن تول
له، بل طمعًا في أن يوحد أبوه الله.

* * *

الصف

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾

هذا إخبار عن قدر الرسالة الخاتمة التي حملها الرسول الخاتم، وقدرها المحتوم أن تكون ظاهرة. الضمير المنفصل تأكيد من الله على أنه مصدر الرسالة، المتكفل بغلبتها، الشاهد بأنها الحق، والضامن بأن حاملها مصحوب بما يوجب الهداية.

وأما المتصل فإنه يرجع إلى الدين، وعبئاً من يحاول غير هذا الإرجاع، لأن السياق لا يستقيم إلا بإرجاع الضمير إلى أقرب المراجع، والدين أقربها، وهو الذي سيهيمن لا محالة على الكون كله، طوعاً أو كرهاً.

نعم، يمكن أن يكون لإرجاع الضمير إلى الدين وجه آخر غير الهيمنة من الأعلى، وهو اضطرار الناس إلى اعتناق الإسلام، وتكون سائر الأديان مغلوبة على أمرها، إلا أن هذا الوجه بعيد نظراً لما يترتب على الإكراه من ملازمات كلامية لا تصلح.

اللام، لو تدبرت فيها، لوجدتها بشارة غيبية عظيمة تكشف مآل الرسالة الخاتمة، فهي تنبئ بأنها لن تصيبها ما أصاب شريعة موسى وعيسى، وأن أصحابه، في يوم ما، سيكونون سادة العالم.

وأنت لو تأملت في القرآن، لوجدت أنها بشارة تكررت ثلاثاً في غير موضع فيه، تحفيزاً لحملة هذا الدين، وتطميناً لرعاته، وتحدياً لخصومه.

نرى اليوم، وترون، تحقق تلك النبوءة: من يشرب الصغيرة إلى القارات السبع الكبيرة!

* * *

الجمعة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ
ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

إني لما رأيت تضييع فرقة من المسلمين لفريضة من الله علينا واجبة، عملت على تحقيق موضع الخلاف في أمر سريان التكليف العيني لصلاة الجمعة.

ولقد رأيت منشأ تضييعها أغلاطاً ومغالطات، حتى كأنهم يرون، بعد غيبة صاحب الشريعة، تعطل أحكام الديانة الحنيفية، إذ فرقوا العمل بها بين حضوره واحتجابه، يحذرون إن هم أقاموها، فحكموا، وقضوا، وأفتوا، أن يكونوا قد غصبوا مقامه، واستولوا على منصبه، واستأثروا على شؤونه ومزاياه.

وكاننا من الحكمة الإلهية أن يترك الناس في تيه لا يعرفون ما الذي نجز عليهم، وفي ضياع لا يدرون أفيما يفعلون ويتركون تعذيراً لهم.

وكانها من المشيئة الربانية أن يهمل العباد في حيرة تدور أوامر للدين عندهم بين حرمة ووجوب، وفي شتات لا يسوسهم ولي ظاهر وإمام قائم.

ويا للعجب، كيف استحكمت الوسوسة عليهم، وتمكنت الشكوك منهم، حتى صاروا يخافون انشغال ذمهم ويتوجسون عدم براءتها!

وسبحان الله، كيف غدت واضحة مثل هذه تحتاج إلى توضيح؟ وكيف صار في مثلها مواقع للتفكير والنظر؟ هذا، ومحل يومها أنه سيد الأيام، وكرامته أنه جعل عيداً ليس لنا أولى منه عيد، ومقام منبره ليس له في الدين مثله مقام!

أما بعد، فإني أقول في الآية: إنها أمر بالوجوب العيني على المكلفين عامة، بحضور صلاة خاصة في يوم الجمعة، وصيغة منطوقها تفيد الوجوب العيني المتكرر كلما سمع أذانها. وأما مفهوم قضيتها الشرطية، فنظرًا لأننا لا نقر بحجية مفهوم المخالفة، فإننا لا نلتزم بانتفاء الدم في حالة غياب النداء، إذ قد يظل الدم ساريًا.

وعليه، فلعل المشروط -وهو السعي إلى الجمعة وترك البيع ونشاط كسب المعاش- لا يسقط بتعذر الشرط -وهو النداء-، لأن المعلق باللازم لازم، واللازم هو ألا تترك الجمعة أسبوعًا، كما كانت سيرة النبي والأطائب من عترته وصحابته التي كانت منعقدة على إدامتها نداء وحضورًا. فلا كلام في أصل الوجوب، ومقتضى الأصل هو إطلاقات الكتاب والسنة، وقطع المسلمين كافة بوجود هذا الفرض؛ وإنما الكلام فيما هو الواجب بعد عهد الرسالة الخاتمة: هل هو فريضة الظهر أم الجمعة؟ وما هو متعلق الأمر بعد الاتفاق على أصل التكليف بالجملة، هل هو حضور كل جمعة، أم جمعة ينادي إليها النبي أو ولي الأمر؟

وإلا، فإن إنكار وجوب الجمعة رأسًا ساقط جدًا لاضطرابه، وبسبب ما يرافقه من محذور الوقوع في إنكار ضرورة من الدين، فلا يستحق أي التفات، فضلًا عن نقاشه.

وإن قلت: لا يستفاد بوجه وجوب النداء ابتداء، ولا على من يجب، بسبب بناء الفعل الماضي للمجهول؛ قلت: ولا يستفاد منه أيضًا حصره بالنبي أو بولي الأمر، والأصالة للإطلاق عند

التردد، وقد تقرر في الأصول أن الإطلاق يدل على التعيين، كما تقرر أن الخطابات الشرعية لا تختص بالمشافهين بها، بل تشمل الحاضرين والغائبين، وتجري أحكامها على من بقي، كما جرت على من مضى.

فإن قلت: سياق الآية يدل على أن ترك النبي قائماً يمثل مورداً يصلح لتخصيص الزجر؛ قلت: لا يخصص المورد الوارد، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ كما أن مفهوم المخالفة لا يحظى بالحجية؛ ثم إن علة ترك النبي لا تنحصر في رؤية التاركين تجارة أو لهواً، بل قد يتركونه لغيرهما.

وإن قلت: نجري الاستصحاب، فنبقى ما كان على ما كان، والأصل في ذلك وجود النبي أو ولي الأمر؛ قلت: هذا، للإنصاف، وجه ناهض، إلا أنه لا يتم، لابتلائه بأدلة من السنة، عن أصحاب الإجماع، تروى في الكتب المعتبرة، ذات أسانيد متصلة صحيحة، وذات دلالات ظاهرة، تحكم بمجموعها بـسريان الوجوب العيني سرياناً لا ينقطع إلى يوم القيامة، ولا تشعر البتة بغير ذلك، وهي كفيلة بإسقاط تلك الأصالة المستدل بها.

وقد تقول: إن التخيير حينئذ يقدم نظراً للدوران الأمر بين محذورين، وعليه، نلتزم بإتمام التكليف باختيار أحدهما بدلاً من تركه هكذا.

قلت: لا انطباق، فأى محذورين نحن بينهما والسنة خالية من الحث على إقامة الظهر يوم الجمعة من غير عذر ومسوغ؟ فلا محل للتخيير الشرعي.

نعم، يمكن التعويل على مفهوم الصفة، فيقال: لا سعي ولا ترك للبيع إذا نودي للصلاة في غير يوم الجمعة، وليس هذا التعويل استناداً محضاً إلى المفهوم، بل إلى الأدلة الشرعية التي أيده.

وكيف كان، فلقد علمنا أن السنة قد أتمت مقدمات الحكمة، باستثناءها أفرادًا من صيغة الأمر، فجعلت حضور الجمعة لازمًا على الرجل المكلف الحر الخالي من الأعذار، وأخرجت ما سواه منها، فإنها لو أرادت مزيدًا من الاستثناءات، لاستثنت التكليف إذا فقد النبي أو ولي الأمر. وكما هذا، اشترطت في انعقادها أن تكون جماعة، وأن يجتمع فيها على الأقل بضع نفر، والإمام أحدهم، فلو أرادت مزيدًا من الشروط لكانت قد اشترطتها. وإن قلت: لو كان الأمر يدل على الوجوب العيني، لذاع أمر وجوبها بعد عصر الرسالة المجيدة وبان، وكان قد ظهر على ألسنة الرواة؛ قلت: فهل يشك في تضييع المسلمين لكثير من الشرائع والأحكام؟

* * *

المنافقون

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

تناولت السورة فئة من المسلمين وصفتهم بالمنافقين، وهم أولئك الذين يضمرون الكفر ويظهرون الإيمان، ولم تكن هذه السورة لتنزل لولا تفشي ظاهرة النفاق واستفحالها، ما استوجب تنبيهًا عاجلاً من القرآن، حماية للجماعة المسلمة.

وما كان نفاق المنافقين إلا وليد خوف وحرص، فإنهم لما رأوا اشتداد عود الإسلام، خشوا على أنفسهم من العقوبات التي وعد بها الكافرون، وإنهم لما رأوا كثرة أتباعه، طمعوا في الغنائم، ورجوا أن ينالوا شرف السبق إلى هذا الدين.

ولقد زود القرآن الجماعة المسلمة بأمارات تعينهم على التعرف إلى وشائج النفاق ودسائسه، ومنها: كثرة الحلف بالله، والتي يتخذها المنافق وقاية وجنة يحتمي بها كلما أوشك أمره على الانكشاف، أو كادت إحدى دسائسه أن تفتضح.

ثم تواصل السورة رسم ملامح المنافقين، فتشير إلى أناقتهم، ولباقة ألسنتهم، والقلق الذي يساورهم خشية أن تنزل فيهم آية تعري ما في قلوبهم أمام الملاء.

ومع تلك العلامات، ظل بعضهم غير مكشوف، حتى إن النبي نفسه لم يكن يعلم بأمر بعضهم، وكان فيهم من بلغ به القرب منه حد التآمر على اغتياله.

ولقد حرص القرآن عليهم مرات عديدة، وهددهم بحزم إن لم يكفوا عن أفعالهم، ثم تدرج في التعامل معهم، فأمر بملاحقة المعروفين منهم، وتوعدهم عقبئذ بالقتال كما يقاتل الكفار. وهكذا استجاب النبي لتلك الأوامر الباتة، فهدم مسجد الضرار معقلهم، وقاطعهم ليضعف حركتهم، حتى خمدت نائرتهم، وذبلت جذوتهم.

ثم بعد أن أغلظ عليهم، ترك بعضهم على حالهم، بل وأدناهم إليه لحكمة أضمرها، ولئلا يقال: محمد يقتل أصحابه!

وما لبث الوحي أن واكب ذلك بموقف حازم، إذ تضمن تعريضًا بحفنة ممن أدناهم النبي إليه، فأنزل آيات من فوق سبع سماوات، منها واحدة في رجلين رفعاً صوتهما فوق صوته، وأخرى في إحدى نسائه كانت تشكك في مصدر نبوءاته.

وهكذا يتبين أن النفاق عزيمة، والتقية رخصة، غرضها درء ضرر مؤكد الوقوع ممن يخاف سطوته ووثبته، وقد حذر الله مستعملها نفسه.

والأصل، أن التقية تدور مدار الأحكام الخمسة: الوجوب، والحرم، والراجح والمرجوح، وما يتساوى طرفاه جوازاً؛ والأصل فيها أنها لحقن الدماء، فإذا تجاوزت ذلك، فلا تقية، وإذا توقف أمر الدين على تركها، ترك.

التغابن

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

إذا استقر هذا التصور في الضمير، اطمأن صاحبه عند الحوادث، فلا يأسى على تأخر، ولا يفرح بتعجل، بل تهون عليه كل نازلة، إذ هي بعين الله.

والإنسان، كما أمر بتحمل المصيبة التي لا خيار له فيها، والصبر عليها، كالفقر والمرض، فإنه لم يؤذن له في تحمل أخرى، كتلك التي تصيب عرضه ونفسه، وعليه نودي بمقاومتها.

إن المصيبة شر وخير، وقد اختصت بالأول لغلبة الاستعمال؛ وهي على ضربين: عقوبة وبلاء، والآية ناظرة إلى البلاء، والإنسان هو المفعول به، لكنه حذف لوضوح تقديره.

والإذن هو إجازة من الله لمجاري الأمور أن تجري، غير أن الإذن الذي يعطى للشر على مستوى الحدوث التكويني، لا يعني الإذن له على مستوى التشريع.

ومن هنا، تعرف أنه لا تنافي بين وجود المصائب والعدالة الإلهية، فإذا آمنا أن خالق الكون، بكل ما فيه من محب ومكروه، حكيم في الكليات، وجب علينا أن نؤمن بحكمته في التفاصيل، حتى وإن تعذر علينا فهم العلل، وضعفت عقولنا عن إدراك المقاصد.

* * *

الطلاق

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا﴾

حين فصلت السورة الأحكام المتعلقة بحقوق النساء في المجتمع الإسلامي: طلاق وعدة ومراجعة ونفقات؛ نبهت الرجال إلى مغبة تجاهل تلك الأحكام.

وقد جاء هذا التحذير تحسباً من تقصير محتمل في الالتزام بالأحكام المتعلقة بالنساء، إذ قد يحلو لرجال عات، ذي نزعة جاهلية، مستعل بذكوريته، أن يفرط أو يتقاعس.

لذا، ترى أن القرآن لم يوص بشيء توصية شديدة كما فعل في أحكامهم، ذلك ليدرك الرجال خطورة التهاون، وحتى لا يلحقوا مصير أولئك الذين استهانوا بالمحظورات، فاستدرجوا، ثم أخذوا بذنوبهم أخذاً شديداً.

الأحكام الشرعية كثيرة، وقد تؤدي كثرتها إلى التحايل عليها إغراضاً عنها، كما أن ملاك العديد منها مجهول، وقد يؤدي الجهل ببعضها إلى إحجام عن الانقياد إليها.

* * *

التحريم

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾

السورة توبيخ يتلى آناء الليل، وتعريض يقرأ أطراف النهار، وإدانة نزلت من فوق سبع سماوات، لامرأتين من نساء البيت النبوي الشريف، لما بدر منهما من أذى بحق خاتم النبيين وسيد المرسلين؛ وقد دعيتهما، بعد تلك الأذية، إلى توبة نصوح تطهر ما سلف. وهكذا، جاءت لتفند أوهامًا وتبدد أحلامًا: القرابة من مهبط الوحي ليست حصانة، والعلاقة الاعتبارية بموضع الرسالة لا تسقط واجب الاستقامة. ولقد أنزلت الآية كي لا يغتر مؤمن بأمهات المؤمنين، فيظن فيهن امتناع العصيان، والنفاق، والكفر، والتجديف؛ كما جاءت لتمنع استغلال إحداهن رابطة النكاح، في دعوة المجتمع الإسلامي إلى طاعتها واتباعها.

ومن ثم، فإن عقابهن مضاعف، لقيام انتسابهن إلى الحضرة الشريفة، ذلك أنهن إذا اتقين الله وورعن في دينهن، أدخلن على صاحب الحضرة السرور، وإن هن اجتزن الحدود وهتكن المحارم، أدخلن عليه عار أفعالهن؛ فالقبيح من كل أحد قبيح، وهو منهن أقبح. من هنا، تفهم ملاك تلك الحملة، حتى بلغ الأمر مبلغاً يهدد فيه بالطلاق، فلا يغدون من بعد أمهات لنا.

بل وتضيف السورة، في استطرادها، مقارنة بين اثنتين نشأتا في بيت من بيوتات النبوة ولم تستقيما، وبين اثنتين عاشتا تحت قوامة الكفر فاستقامتا، لتبين أن الاستقامة تتحدد بالاختيار والعمل، لا بالنسبة أو النسب.



الملك

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾

تتجاوز الآية سوق البراهين المجردة، داعية المخاطب إلى مقام المعاينة البصرية وعتبة التجربة الحسية، ليتفقد بنفسه عظيم ما صور الخالق، وعجائب ما برأ، وترابط ما خلق بما خلق؛ ذلك أن ثمة من يغفل، بفعل الألفة، عظمة هذا الخلق، فهو يرى السماء فوقه، والأرض تحته، والنظام جاريًا من حوله، ثم لا تعدو عينه حجاب الاعتياد.

تعال واستفت من شئت عن طبائع الأشياء: سل أهل الأحياء، وأرباب الفيزياء، خبراء الكيمياء، وأساتذة الطب، علماء الرياضيات، وأصحاب الفلك، تراهم يشهدون بانضباط هذا الكون وكفاءة مكوناته؛ وإن شئت الإعراض عن السؤال، فأمعن النظر فيه: أفتبصر فيه عيبًا؟ وإن بدا لك أنه من العيب خال، فأعد تأمله كرة بعد كرة: أفتجد فيه اضطرابًا؟

القلم

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾

هذا تنبيه لرسول الله، ويتعداه إلى سائر أتباعه من الدعاة، من إحدى محاولات أصحاب المقالات الفاسدة، الرامية إلى تحجيم دعوة الإسلام.

فإنه لما تبين لأهل الكفر أن لا مفر من التفاوض، طلبوه رجاء أن يجدوا بعض المرونة من صاحب الدعوة القوية، غير أن دين الله لا يقبل المحاصصة، ولا يرضى بالمساومة، ولا يرخص لأنصاف الحلول أو المصانعة أو المضارعة؛ أما هم فلا يجدون حرجاً في التنازل، إذ العقيدة الصغيرة عندهم كالكبيرة.

الحاقة

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ﴾

من المشاهد المركزية في يوم القيامة، عرض أهل المحشر أمام محكمة ساوية، حيث يسلمون صحيفة مجهولة الماهية، تتضمن جميع أعمالهم.

قد يكون الكتاب شبيهاً بالكتب التي نعرفها، من حبر وورق، أو في هيئة أخرى، غير أن من المستبعد أن يكون التعبير مجرد تمثيل لغوي يعبر عن التفاؤل أو التشاؤم، ويرجع ذلك إلى تفهيم القرآن لنا بأن الأعمال ستتجسد في الآخرة في صور وهيئات تعرض علينا.

الفاء هنا استئنافية لتفصيل إجراءات العرض، وقد تكرر في القرآن أن أمانة النجاة هي أن يعطى الكتاب باليمين، بينما علامة الهلاك هي أن يعطى بالشمال أو من وراء الظهر، فإذا أعطي أحدهم كتابه بيمينه، طار فرحاً به بين الجموع والملائكة، وهو يهتف والأرض لا تحمله: هاكم، اقرووه!

المعارض

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾

إنه تعالى، حينها أوجد بين الفخذين شهوة جنسية عنيفة، وغريزة حيوانية جامحة، دل على سبل تفريغها، وعين التناسل غاية لذلك التفرغ.

وإنه سبحانه، لما أوجد ودل وعين، ضبط تلك الشهوة بأن أودع رغبة كل جنس في الآخر، وأمر بأن لا يصل رجل إلى لذة الإيغاف إلا بامرأته، ولا تبلغ امرأة ذروة الشبق إلا بزوجها.

تحريم الزنا، والسفاح، والبغاء، واللواط، والسحاق، ووطء البهائم، والخضخضة، والدلك، والحث على حجب السوء إلا عمن يحل نكاحه، كلها معان ترمي إلى تحصين الفروج.

أما مقصد تلك المعاني فهو إشاعة الطهارة في المجتمع، لتظل الأعراض من الدنس محفوظة، والبيوتات من الرجس مصانة، والأنفس من اللوث محمية.

نوح

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾

دعاء على الكافرين من نبي مستجاب الدعوة؛ فهو لما أقام عليهم الحجج الدامغة والبراهين الساطعة بكل وسيلة أتاحت له، يؤس منهم؛ وهو لما عانى منهم ما عانى، استنتج أن الكفر ملة واحدة، فأخذ يدعو على كل كافر في المعمورة، سواء كانوا ممن أقيمت عليهم الحجة أم لم تقم؛ والعلة من هذا التعميم أن الكافر ضال مضل، وفي صلبه أمثال له، وقد كانت الأرض بحاجة إلى تطهير عاجل من دنس كل كفر.

٢٢ صفر ١٤٤٦هـ / ٢٧ آب ٢٠٢٤م

الفهرس

٥	كلمة الناشر
٧	توطئة
١٣	البقرة
١٥	آل عمران
١٧	النساء
١٩	المائدة
٢١	الأنعام
٢٣	الأعراف
٢٥	الأنفال
٢٧	التوبة
٢٩	يونس

٣١	هود
٣٣	يوسف
٣٥	الرعد
٣٧	إبراهيم
٣٩	الحجر
٤١	النحل
٤٣	الإسراء
٤٥	الكهف
٤٧	مريم
٤٩	طه
٥١	الأنبياء
٥٣	الحج
٥٥	المؤمنون
٥٧	النور
٥٩	الفرقان
٦١	الشعراء

٦٣	النمل
٦٥	القصص
٦٧	العنكبوت
٦٩	الروم
٧١	لقمان
٧٣	السجدة
٧٥	الأحزاب
٧٧	سبأ
٧٩	فاطر
٨١	يس
٨٣	الصافات
٨٥	ص
٨٧	الزمر
٨٩	غافر
٩١	فصلت
٩٣	الشورى

٩٥	الزخرف
٩٧	الدخان
٩٩	الجائية
١٠١.....	الأحقاف
١٠٣.....	محمد
١٠٥.....	الفتح
١٠٧.....	الحجرات
١١٥.....	ق
١١٧.....	الذاريات
١١٩.....	الطور
١٢١.....	النجم
١٢٣.....	القمر
١٢٥.....	الرحمن
١٢٧.....	الواقعة
١٢٩.....	الحديد
١٣١.....	المجادلة

١٣٣.....	الحشر
١٣٧.....	المتحنة
١٣٩.....	الصف
١٤١.....	الجمعة
١٤٥.....	المنافقون
١٤٧.....	التغابن
١٤٩.....	الطلاق
١٥١.....	التحريم
١٥٣.....	الملك
١٥٥.....	القلم
١٥٧.....	الحاقة
١٥٩.....	المعارج
١٦١.....	نوح



9 781739 614386

